الخطيئة

رواية

تامر محمد عزت

ثم قالت في مرح طفولي :
سأطلب فنجانا خاصا من مشروبنا المفضل ثم قُص عليا ما كتبته .. فأنا أحب هذا الخليط الممزوج من القهوة الفرنسية مع حكاياتك من نبرات صوتك.

مقدمة

لم يكن أحد من أهل القرية يدري حين أقبل هذا اليوم أنه سيكون يومًا يذكره الناس كافة على مدى الأيام القادمة ، أسموه (يوم العاصفة) ،كان يومًا من أيام الشتاء القارصة ، بالرغم من كونه هادئا صافيا مشرقا إلا أنه طبع قبلة باردة في القلوب ، أرض القرية لا تشعر بالعنف ولا تُوحي بالقسوة ، ولكن ما حدث أظهرت كم من الفتن النائمة حتى تساءل بعضهم : كيف نبتت كل تلك الفتن في

وادينا الطيب ؟ ، خرج أكثر أهل القرية إلى عملهم ، وبعضهم إلى السوق ، كان الجدال عنيفا بينهم ، تسري الشائعات بينهم كما يجري الدماء في عروقهم ، الكل يُلقي بمعلوماته التي يعرفها والتي لا يعرفها ليزيد من شأنه أمام الآخرين ، الكل يعلم ما تم في اجتماع المصنع بالأمس في حين أنه لم يحضره إلا المسئولين عنه فقط ، لم يخرجهم من جدالهم إلا مجذوب القرية الذي كان في أشد حالات الغضب ، كان قد اختفى لفترة زمنية كبيرة ثم عاد بعدة هيئات مختلفة عن كل مرة، لم يروه هكذا من قبل ،بالرغم أنه شهر يناير , كان تلك المرة يرتدي بنطالاً عليه آثار وعلامات تراب الطريق ، قميصه صار بلا هوية ولا ملامح ولا ألوان ولا أزرار، غطى رأسه بقبعة رياضية في وضع مقلوب, لونها أزرق مائل للحُمرة ، لا أحد يدري أهذا الذي يرتديه في قدميه..أحذاء هذا أم صندل أم شبيه لهم ؟صوته صار جهوري عما مضى ,له تذبذبات حادة تصم الأذان ، كيف أصبح المكان فارغاً فجأة بلا سيارات؟ نظرات مخيفة من المجذوب كأنها إشعاعات منبثقة من عمق عينيه الواسعتين
سمعوه يقول :

" أنتم غير مؤمنين بالله "
" أنتم مُدّعي الفقر "
" أنتم كاذبون و تستحقون ما أنتم عليه "
" أنتم بلا ملامح "

هرب سريعا قبل أن يفتك به أحد فقد كان يحتفظ بالكثير من الأسرار... أسرار الخطيئة.

(١)

المجذوب

في أواخر يناير و بعد منتصف الليل تخلو شوارع وحواري القرية من الإنس ، لا يسير في طرقاتها إلا المتأخرين في أعمالهم أو من لديه حالات طارئة ، هدوء يسري في القرية إلا من نباح الكلاب ومواء القطط الضالة ، الغريب أن حصان أبيض يجري في الأزقة ثم الحواري ثم يُسمع صوت حافره على الإسفلت وكأنه يهرب من أمر ما والأغرب أن لا أحد يلاحقه ، رويدا يعود الهدوء النسبي إلى القرية ولكن هيهات ،شق صرخات مجذوب القرية سكون الليل الذي خيم عليها ، الصراخ بالويل الثبور والوعيد والدمار ، كان يسير حافي القدمين آناء الليل و أطراف النهار ، يسير وفي يده عصا ضخمة أضخم من ذراعه ، كانت أشبه بعصا الفتوات ، استخدمها حديثا للدفاع عن نفسه من شياطين الإنس الذين يصفونهم بأحباب الله ، يتوكأ عليها في سيره ويتمتم بكلمات غير مفهومة وغير

مسموعة ، ملابسه لا تتغير إلا كل عامين ، فقد كان يرتدي جلبابا ممزقا من جوانبه ومن ذيله ، رمادي اللون أو يكاد يقترب من الرمادي الباهت لإهماله لشهور طويلة ، شعر طويل مهمل مليء بالأتربة لا يحلقه إلا بالموسى في موسم الحج ليتركه باقي العام، أطلق لحيته لتعيش في عشوائية متناسقة مع مظهره الخارجي، قصير القامة ، واسع العيون ، نحيف ، أحدب ، لم يعرفوا لون بشرته ، هل هي بيضاء أم سمراء أم قمحي اللون أم بشرته خليط من كل هذا !، أطلقوا عليه أهل القرية لقب غير أسمه لأنهم لم يعرفوا له اسم ، " الشيخ محمد "، ظهر فجأة بينهم مثل جني الأرياف، لم يعرفوا له أصل ولا فصل فاخترعوا له قصص وحواديت نيابة عنه وانتشرت بينهم كأنها تاريخه الشخصي، يظل يجوب بينهم في الشوارع والحواري دون أن يؤذي أحد ، يلقون عليه بالقليل من كسرات الخبز والماء والعصائر ، أحيانا يتبركون به في الموالد والأفراح ، يجلس وسطهم في بلاهة ويرسم على وجهه ضحكة غير مفهومة وكأنه في عالم آخر غير عالمهم ، يتعجبون منه عندما يطلب الشيشة و يبدأ في تدخين الحجر وسحب الدخان في صدره فما يلبث أن يسعل بشده و يحتقن وجهه ويهرب الأكسجين منه وتحمر عيونه وهم يضحكون عليه و يسخرون منه ثم يطردونه وكأنهم يقولون له اهرب قبل أن تكون كارثة بيننا وتموت ويفتضح أمرنا ، إذا أعطوه قرشا يرده في وجوههم مصحوبا بتمتمات غير مفهومة فيظنون أنه يسبهم ويلعنهم في سره ، بمجرد أن يمسك القرش بين أصابعه النحيلة يلقيه كما يرجم الحجاج جمرات الشيطان، أما إذا أمسك بورقة مالية وإن كانت قليلة القيمة يأخذها ويهرب ، لا أحد يعلم أن ينام وأين يبيت لياليه ، مُشرد بلا مأوى أو زوجه أو أهل ، القرية كلها بيته ومسكنه والقليل من بواقي الأطعمة تكفيه ، اعتادوا عليه السكوت طوال حياته إلا من همهمات ، ولكنه تغير في الآونة الأخيرة صار يئن ويصرخ صرخات الموجوع من شدة الألم ، تعجبوا عندما يصدر أصوات بكلمات مفهومة ، لدرجة أن سيدات القرية كانوا يقولون فيما بينهم (الشيخ محمد تكلم) ، بدأ يتحدث عن الويل والعذاب الذي سيمطر أرض القرية ، صار يردد بكلمات غير واضحة آيات الوعيد التي ذكرت في القرآن ، اندهش الجميع عندما سمعوه يتلوا عليهم قصص عاد وثمود ، وما حدث لقوم صالح عندما قتلوا الناقة ، صاروا يتجنبوه بعد فترة من التنديد بالهلاك ، بعد عدة تغيرت ملامحه، اتسعت عينيه وهو ينذرهم ، صوتا عاليا كأن حنجرته استعارها

من رجل آلي ، تطور أمره بأن صار يرمي الناس بالحجارة الصغيرة ، يسب ويلعن سلبيتهم وخنوعهم ، (الظلم قادم ، الهلاك آتي) ظل يرددها في كل ركن من أركان القرية وكأنه مأمور ، الكثير من أهل البلدة صموا آذانهم ولم يبالوا بما حدث لـ مجذوب القرية إلا أحدهم ، هذا الشخص هو الذي سوف يقلب كيان هذه القرية ، وحده من يملك مفاتيح الصندوق الأسود ، في جعبته الملف، هذا الملف هو الخطيئة المسكوت عنها. مجذوب القرية ما هو إلا شبح الحقيقة الصادمة، الشبح الذي ظهر لأحدهم في منامه، وعندما قابله قص عليه رؤياه :

("صرت شبحًا.. لا أحد يراني ولا يسمعني وبالطبع لن يتحدث إليّ..إنما أنا من أسمع وأرى..ولكن.. أين أنا ؟ أنا على أرض جليدية بيضاء ، مساحات شاسعة من اللاشيء ، لا أشجار ولا أنهار ولا طُرق ولا بشر ولا بناء، أطير بلا أجنحه ، ألتفت يمينا ويسارا في الفضاء البيضاوي اللا محدود ، نحن بالنهار لكن بلا أشعة شمس ،الأغرب وبالرغم أننا على الجليد ولكن بلا برد أو صقيع أم لأنني شبح فقدت بعض حواسي ؟ لا أعلم !
ما هذا ؟ سؤال تبادر إلى ذهني عندما بصُرت من بعيد شيء ساكن في الهواء، اقتربت بحذر ، كان فرع شجرة يتدلى لأسفل , كان غصنا بلا جذع شجرة ! ليس عليه أي ملمح من ملامح الحياة، يابسا بلا أوراق، ازددت اقترابًا ليهتز فجأة، تراجعت إلى الوراء في ريبة، اهتزازه كان غريبا،كأنها إشارة. الاهتزاز المتكرر يشير إلى الأسفل ..هبطت رأسي ببطء شديد وصرخت، ثم أطلقت لخيالي العنان "

استيقظت من نومي فزعا.. استعذت بالله من الشيطان الرجيم ، قمت من فوق فراشي الدافئ وذهبت إلى المطبخ وأفرغت كوبا من الماء داخل معدتي وعدت لأكمل نومي والمفاجأة أنني أكملت حلمي.

" ما الذي يُرهب شبحًا مثلي ؟ هكذا حدثت نفسي وأطلقت ضحكة عالية لم يكن لها أي صدى، عدت إلى حيث كنت، مازال الغصن يهتز كالمرة السابقة ، رأيت كرة شفافة ، مدفون بداخلها رأس تشبه رؤوس تماثيل اليونان، بلا حدقات ، الوجه كان شاحبًا تمامًا، الرأس مغطى بوشاح قاني اللون ..اقتربت أكثر وحدقت

في تلك الكرة الغريبة القوام ونفخت فيها ، فطارت أمامي ، ارتفعت عن الأرض..صُعقت عندما تكسرت الكرة وأصدرت صوتا كالزجاج..ثم عادت الروح إلى الرأس وتحركت شفتاه بابتسامة باهتة " .

للمرة الثانية أقوم فزعا من نومي..قمت متثاقلا إلى الحمام وأفرغ ما تحمله مثانتي من فضلات غير مرغوب بها وتمنيت لو أفرغ معها ذلك الكابوس المزعج ،خرجت منه إلى فراشي مرة أخرى .لا أريد النوم. أتطلع إلى ساعة الحائط لمعرفة الوقت، أشارت الأرقام أنه مازال الوقت مبكرا ..لا مفر..لنكمل باقي الحلم.

" عندما اقتربت منه تبدل المشهد كأننا غصنا في دوامة زمكان ، وتغير كل شيء وصار للرأس جسد ، جسد نحيل , قصير القامة , تأملت وجهه , لاح على ملامح وجهه الحزن العميق ، والأدهى أنه كان جالسا في بيتي بالأخص في صالة المنزل ، رأيت نفسي وجدتني عدت إلى هيئتي البشرية ، لم أفهم شيئا ثم سألته في ارتجاف : ما الذي يُحزنك يا مولانا ؟ لم يجب في البداية ، تأملته جلبابه الأبيض الذي يلمع بلمعان فسفوري مشع ، ثم أشار إلى باب الشرفة ، عدت إلى الوراء من الرعب ، لم تكن يده التي كان يشير بها بل أشار بنفس الغصن التي رأيتها في الحلم من قبل ناحية الشرفة ، قمت من مكاني وفتحت باب الشرفة لأجد في استقبالي طقس رمادي اللون ، ورأيت من الطابق الثاني مشهد عجيب، انشقاق أرضي كبير، أحدث فجوة كبيرة في الأرض، ، عميقة لا قاع لها، ظلمات بعضها فوق بعض ، المارة وقفوا على الجانبين بلا حراك، ثم سمعت صوت يصرخ يصدر من داخل البيت: الخسف من علامات الساعة الصغرى".

للمرة الأخيرة قمت أكثر فزعا ورعبا، دقات قلبي تتهاوى بين ضلوع صدري الذي لم يهدأ من الارتفاع والهبوط، أقسمت أن لا أنام مرة أخرى ،بتثاقل قمت لأعد لنفسي كوبا من الشاي مخلوطا بالنسكافيه حتى أستعيد تركيزي ونشاطي بهذا الخليط الداكن وبعد أن هدأت وتجمعت ذاكرتي واستقر عقلي.. لم يكن هذا الشبح إلا أنت يا شيخ محمد.)

(٢)
الغموض

في نفس التوقيت , و على الناحية الأخرى من القرية ، كان الظلام يحيط بمبنى قديم ، يشغل مساحة شاسعة وجزء كبير من أرض القرية ، انه مصنع (فاكتوري) الذي يحيط به التاريخ من جميع أنحاءه ، حل السكون أخيرا بعد العاصفة التي نشبت منذ أيام ، هبط المساء وأضفى عليه أجواءً من الريبة

والغموض ، كل شيء هادئ إلا من صوت الرياح الخفيف الذي يعبث مع أغصان الشجر ، بدا القمر خجلا متواريًا خلف سحابة داكنة، وكأنها تحاول حجبه عن الظهور بشتى الطرق ومع ذلك تسلل منه بصيص ضئيل لم يساعد على الرؤية بقدر ما زاد رهبة المكان ، تقف على الباب الرئيسي للمصنع شجرة ضخمة وارفة الأوراق ،عُمرها تُقدر بعشرات السنين ، عاصرت العديد من الأجيال ، وشهدت الكثير من الأحداث ، شارع عريض يفصل المصنع عن ترعة قديمة يجري ماؤها في خط موازي للمصنع بهدوء وطمأنينة ، تحت جذع الشجرة يظهر لنا خمس رجال تكاد نرى ملامحهم إلا من انعكاس ألسنة النيران التي أوقدها أحدهم من الخشب الجاف ، من بعيد ظهروا كأشباح ظلام لن تعرف بمكانهم إلا إذا سمعت صوت ضحكاتهم المرتفعة المصاحبة بنكاتهم البذيئة ، كعادتهم جلسوا بعد وجبة العشاء الدسمة يشربون الشاي الثقيل المطبوخ على الخشب المحروق ،يليها تدخين الشيشة في نشوة غريبة بسبب توافر قطع الحشيش فوق الفحم الأحمر ، يتسامرون بالأحاديث الجانبية والشائعات المنتشرة والخاصة بالمصنع وإدارتها ، كل واحد منهم يُدلي برأيه في مصير المصنع بعد الساعات العصيبة التي عصفت بالجميع ، جلسوا على الحشائش الغاضبة من دخانهم الأزرق والفحم الذي يحرقه بين الحين والآخر ، هؤلاء الرجال هم خفر المصنع الكبير (فاكتوري) الذي يحرسونه، المناوبة تبدأ من بعد صلاة العشاء حتى صلاة الفجر، يجتمعون لمدة ساعة ثم يفترقون ، اثنين منهما يحرسان البوابة الرئيسية وواحد عند البوابة الفرعية والاثنان الباقيان يجوبان حول المصنع طوال الليل ، يحمل كل حارس على كتفه سلاح آلي بخزانة محشوة بالرصاص الحي ، و على الرغم من وجود أسلاك شائكة على أسوار المصنع، ولأن المصنع أثر عريق ومهيب يستحق الحراسة المشددة ، فاكتوري عبارة خمس مصانع مختلفة ، يعد المصنع المصدر الرئيسي للحياة الاقتصادية في تلك القرية ، بُني على مراحل ولسنوات طويلة ، توارثتها العائلات عبر أربعة أجيال ، بدأ مصنعا صغيرا ثم كبر إسهاماته واستثماراته وكل جيل أسس مصنعا جديدا ، حتى صار مؤسسة صناعية شبه متكاملة ومن خلاله نشأت أجيال رأسمالية زراعية ، اتسع المصنع وصار له ممولين من عائلات أخرى، صاروا يؤلفون عصبة قوية ذات مصالح مالية بعيدة المدى ما لبث أن وضعت القرية في ثوب جديد ، وصار التطلع واضحًا بشدة إلى التدخل الداخلي ، العمال من أبناء القرية

والقرى المجاورة والبعيدة ،وبسبب المساحة الشاسعة قد يدفع بعض العمال لاستخدام الدراجات من أجل الانتقال خلاله أو لخارجه ، وما يزيد المصنع تميزًا هو إنشاء مركز طبي متميز للعمال لعلاجهم وصرف أدويتهم مجانا ، ومباني كالفنادق مؤهلة لتسكين للعمال المغتربين من القرى المجاورة ومسجدا حديث التطور والتجديد.

فجأة.. ظهر من بعيد أنوار متقطعة تشق الظلام ، كانت الأنوار من مصابيح سيارات سوداء أشبه بموكب جنائزي ، وسط الدخان الأبيض الصادرة من الشيشة ، لمحوا إشعاعات ضوئية تخترق سُحبهم و ظلامهم صادرة من مصابيح سيارة مرسيدس النوع سوداء اللون فخمة مثل صاحبها تقترب منهم، اندهشوا في بداية الأمر من إتيان مدير أمن المصنع في مثل هذا التوقيت وخاصة أن المصنع تم إغلاقه لحين إشعار آخر ، وما لبث أن زاد اندهاشهم عندما لمحوا سيارات أخرى تقترب في سرعات متفاوتة محدثة جلبة مع الطريق أدى لتناثر الأتربة في الهواء محدثة شبورة ترابية لم يستطيعوا تمييز أصحاب السيارات الأخرى إلا بعد هبوط أصحابها.

هبط من السيارة الأولى عُمر العسكري ، رجل تخطى السبعين من العمر ، طويل القامة ، أصلع الرأس ، ملامح جادة تمنحه هيبة كبيرة ، على قسمات وجهه قلق مشبع بتوتر ، معروف عنه أنه رجل الغرف المغلقة ؛ فهو يدير المصنع أمنيا منذ ما يقرب من أربعين عاما ، عيون كالصقر تلمح الأزمات الضارية ، يقرأ المستقبل بقلب خبير وعقل شديد الذكاء والحنكة ، مع أول خطوة من سيارته وقف الخفراء بانتباه شديد وإحراج أشد ، رمق الخفير الأول بنظرة قرأها الأخير بلغة شديدة اللهجة والصرامة، طلب منهم أن يذهب كل حارس في مكانه وأمرهم بشدة التركيز والحذر من أي غريب يقتحم عليهم هذا الاجتماع المغلق ، وأخبرهم بأسماء الوافدين للاجتماع وأن هذا الاجتماع قائم عليهم فقط.
كلمات بسيطة وموجزة وحازمة تلقوها بارتجاف في القلوب وهلع في الصدور ، وتركوا كل شيء في مكانه لعل ساعات التوتر تمر في سلام ويعودوا لمجلسهم مرة أخرى.

جلس المحامي عبد الحميد الشرقاوي صديق مدير أمن المصنع والذي يصغره بخمس سنوات في سيارته ،تأمل على جانبه صفحة نهر الترعة الصغير حيث تسبح على صفحته انعكاسات ضياء القمر وظهر كأنه ذيل فستان زفاف كله من الخرز والترتر ، النهر الصغير يمشي في هدوء وتواضع كأنه فتاة عذراء خرجت إلى الشارع لأول مرة ، سرح عبد الحميد وشرد للحظات في هذا المشهد الخلاب والمريح للعين ، والتي كانت سببا في استدعاء ذكريات ماضية طفت على سطح هذا النهر .

منذ لحظات هاتفه عمر وأخبره بضرورة الحضور و أن الاجتماع في غاية السرية والخطورة واستدعاه لقيادة سيارته ، طلب منه المكوث بالخارج حين الانتهاء من تلك الساعات العصيبة، غادر عمر العسكري ووقف للحظات يأمر الحرس بأوامر لم يسمع منها غير الرد الجماعي (مفهوم يا فندم ..تمام يا فندم .. أوامر معاليك سعادة الباشا) ، حديثه الجامد الخالي من الرحمة أربك الحراس مما دفعهم للجري من أماكنهم وذابوا في الظلام المحيط في المصنع باستثناء حارسي الباب الرئيسي ، عبد الحميد الشرقاوي صديق عُمر من زمن بعيد ، ويُعد كاتم أسراره ، تأمل حال عمر في الشهور الأخيرة التي تبدلت كثيرا ، أمطرت السماء بعذابها دفعة واحدة على رأسه وكأن طيرا أبابيل رمته بحجارة من سجيل ، صار عُمر صامتا أغلب الأحيان ، ملامحه تجمدت من هول الأحداث والأفكار الجديدة التي أحاطت به من كل جانب، عندما هاتفه كان منعزلا في استراحته التي تطل على النهر القادم من الجنوب ، وجده جالسا وحيدا بين أثاث بيته البسيط والمزدحم بالانتيكات والصور القديمة المعلقة على الحائط ، وجده شاردا يفكر بعمق، يمضي بخياله إلى ربوع بلدته وقريته ، كان المصنع هو عقله وكيانه وإرث الأجداد و مستقبل الأحفاد، ما يميز عُمر أن لديه رؤية عميقة للغد ، عندما يجده يصطاد فإنه يعلم أنه في حالة تفكير عميق لأمر ما يحتاج إلى الصبر ، أسلوبه في معالجة الأزمات والمشاكل مثل طريقة صيده و التي كانت عندما تغمز سنارته فانه يسحب فريسته رويدًا رويدًا إلى شاطئ النهر حتى يستحوذ ويسيطر عليه تماما ، كتومًا وهذا الكتمان يؤثر بالسلب على عقله فالكتمان يحدث ضجيجًا في عقله لا نهاية له ، كثير من الأسرار تقبع في خزانة عقله، لا أحد يعلم بها بل أحيانا يخبر الجميع أنها ستدفن معه في قبره.

ازداد لهيب النار واشتعلت الحروب وسادت الفوضى في الآونة الأخيرة ومضى إلى استراحته القديمة ، كان غاضبا مشتعلا ، وهاهو الآن في الاجتماع إما يحرق الجميع أو يحترق هو.

مرت ثلاث ساعات ثقيلة على عبد الحميد جالسا يحيطه الظنون والأوهام وسوء الظن، تمنى لو خرج من مكانه ودخل ليرى الحرائق التي تنشب في الداخل ولكنه آثر الالتزام بالأوامر ، تبخر كل ما جال في خاطره عندما وجد عمر خارجا بسرعة البرق من باب المصنع لدرجة أن الخفير لم ينتبه لخطواته السريعة ، رآه كالنار الموقدة ، شرر الغضب يتطاير من عينيه يكاد يحرق ما تبقى من خضار من حوله ، جلس في الكرسي المجاور ، ظل صامتا لبرهة من الوقت ، حينها لمح بوادر عَبرات تنسكب من محجري مقلتيه ، رفع حاجبيه في اندهاش ! وتساءل كيف لهذا الثعلب العجوز أن يضعف بهذا الشكل ؟ وتساءل من جديد :ما الذي حدث في الداخل ؟
قطع عُمر الصمت الذي خيم سكونه على المكان بجملة خرجت من أعماقه :
هذه ليست قريتي وهؤلاء ليسوا أبناءها.. لقد رأيت عالم آخر يبدو أنني تأخرت عنه بسنوات بعيدة ، لا مفر.

طلب عُمر من عبد الحميد توصيله إلى استراحته كما أخذه منها ، طول الطريق كان صامتا حتى أشار لعبد الحميد بالوقوف فجأة ، فقد ظهر مجذوب القرية في الأفق ، وكأنهما على موعد وقد اتفقا على مكان سري للقاء ، أنزل عُمر زجاج نافذته وتكلمت عيناه وقرأها المجذوب بوضوح ثم قال المجذوب في هدوء :
آن الأوان للانسحاب من المشهد كله ، انتهى دورك عند هذا الحد ، راقب الأحداث عن بُعد ، لقد خرجت من شرنقتك وتحولت إلى فراشة ، والفراشة عندما تقترب من النور والأضواء ستُحرق حتما وبلا جدال، أخبر الذي بجانبك بكل شيء وأعطيه ملف الخطيئة لكي يتصرف كما هو مُقدر ومكتوب.

فغر عبد الحميد فاه مما سمع ورأى ، وكأنه دخل في دوامة زمنية ، مجذوب القرية الأخرس تكلم ، وحين فتح فمه أُلجم لسان عمر ولم يرد على المجذوب، تركه ومضى وتابع خطواته من خلال مرآة باب السيارة بينما عقدت المفاجأة

لسان عبد الحميد، فغاص في مقعده وكأنه تهاوى كبناء قديم تم تفجيره من أسفل فصار كوما من تراب في لحظات ، كانت اللحظات تمر بطيئة تكاد تتوقف ، أفاق عمر من حيرته وكأنه نسي الحروف والكلمات ، و أشار إلى عبد الحميد بأن يستأنف طريقه ، كان عمر يتمتع ببصيرة نافذة للتنبؤ بما سيحدث بحكم خبرته التراكمية ، كانت المشاهد والسيناريو أمامه حاضرا ، ومن بعد الاجتماع المغلق الذي جرى منذ قليل شعر أن المصنع دخل في النفق المظلم واتجه إلى المجهول..ولابد من العودة للوراء قليلا.. إلى سبتمبر الماضي ؛ كي نعلم ما هي المقدمات التي أدت لهذه النتائج.

(٣)
قهوة فرنسية

تململ حسام وهو جالس على كرسيه في سيارته وخاصة أن ذرات المطر بدأت في التجمع على زجاج سيارته ليضفي طقسا كئيبا في غير موضعه، غابت

الشمس وتراكمت سحبا رمادية حملت في جوفها الكثير من المشاعر الحزينة والتي سرعان ما انعكست على ملامح حسام ، ومع هطول أول قطرات المطر أشعل سيجارته وفتح جواله ليستمع إلى أغنيته المفضلة والتي تتناسب مع الموقف الذي وُضع فيه ، صدحت فيروز بصوتها الذي أثار الشجن في أعماقه وشرد بعيدًا

كنا نتلاقى

كنا نتلاقى من عشية

ونقعد على الجسر العتيق

وتنزل على السهل الضبابة

تمحي المدى وتمحي الطريق

ما حدا يعرف بمطرحنا

غير السما وورق تشرين

ويقلي بحبك أنا بحبك

ويهرب فينا الغيم الحزين

يا سنيني اللي رح ترجعيلي

رجعيلي شي مرة ارجعيلي

وانسيني ع باب الطفولة

ت أركض بشمس الطرقات

يا سنيني اللي رح ترجعيلي

رجعيلي شي مرة ارجعيلي

ورديلي ضحكاتي اللي راحوا

اللي بعدا بزوايا الساحات

بتذكر شو حكيوا عليي

لما نطرت وانت نسيت

وصار الشتي ينزل عليي

واجا الصيف وانت ما جيت

يا سنيني اللي رح ترجعيلي

رجعيلي شي مرة ارجعيلي

وانسيني ع باب الطفولة

ت أركض بشمس الطرقات

هبط إلى الواقع بعد أن حلق في سماء إحساس فيروز عاليا ، تأفف قليلا خوفا من ازدياد المطر وهو قابع داخل سيارته ، فتح نافذة بابه المجاور ليطلق سراح دخان سيجارته المعبأ داخل صالون سيارته ؛حتى لا يكون موضوعا للنقاش والجدال مع خطيبته دينا ، فهي تحاول وتنصحه الإقلاع عن التدخين ، وهو يحاول اجتياز هذه النصيحة ، رمى بقايا رماد تبغه ثم نظر إلى ساعته وغمغم في تساؤل : لماذا تأخرت دينا ؟

حسام مهندس حاسب آلي، من عائلة ميسورة الحال، اقترب من الثلاثين ، لديه طموح أدبي يصل لعنان السماء ، خطب بعد إلحاح كبير من عائلته ، فهم يرونه وسيم القسمات ، رياضي القوام، طويل القامة ، قمحي اللون، مجعد الشعر، أطلق لحية خفيفة تزامنت مع الموضة تلك الأيام , إلا أنه أطلقها لتضيف عمرا فوق عمره بسبب وجهه الطفولي والذي سبب له حرج كثير مع الناس ، لديه شركة خاصة لكنه أهملها لفترة طويلة بسبب انشغاله بالأدب ، مما دفع بعائلته لأن يخطب ؛ حتى يستقر نفسيا ويهتم بعمله مرة أخرى ، كانت دينا هي البوصلة التي توجه مشاعره للهدف الصحيح من الحياة ، من وراء نظارته الطبية رأى بعيونه العسلية دينا وهي تهبط درجات السلم الداخلي لتقترب من باب العمارة أخيرا .

دينا.. ذات الخمس والعشرين عاما ، خريجة كلية آداب قسم تاريخ ، بيضاء البشرة ، عينان لوزيتان ، متوسطة القامة ، محجبة وإن كانت قد تركت الحرية لبعض خصلات شعرها الأمامي تنسدل على جبهتها أضافت جمالا فوق الجمال، كانت ترتدي معطف من الجلد ، بنفسجي اللون ، وبنطال من القماش أزرق اللون ، على كتفها شنطة بنفس المعطف واختارت حذاء رياضي أبيض اللون لتسهل من حركتها، من بعيد قابلته بابتسامة لطيفة رسمتها شفتاها الرقيقة كأنها رسالة اعتذار عن تأخرها ، ما إن خرجت من باب عمارتها حتى تساقط قطرات المطر فوق معطفها مما جعلها تُسرع في الركوب بالسيارة ، تطلع إليها حسام وهي تستقر بجواره ، كاد أن ينطق لسانه بالتوبيخ حتى استطردت في اعتذارها عن قدومها متأخرة بسبب مكالمة هاتفية من صديقتها ، ضمت شفتاها وحاجبيها في ضيق كانعكاس لغضب ملامح حسام والذي بدوره استقبلها بابتسامة حتى ضحك من ذكاء طريقتها و أسلوبها معه ، أرسلت له قبلة في الهواء قبل أن يتحرك من

مكانه تاركا لسيارته الحرية لاختراق قطرات المطر التي زادت بعض الشيء مما جعله يستخدم مساحات السيارة ، موسيقى هادئة انسابت من مسجل سيارته ومضت في هدوء.

دينا تعتبر الفتاة المناسبة لشخصية حسام ، فهي ذكية ومحبة للحياة ، نبرات صوتها توحي بالمرح دائما حتى في الأزمات والنكبات، أحب حسام نبرة صوتها المتفائل دائما ، كانت تختم كل جملة تتحدث بها بضحكة لها رنين مميز في القلب ، أخبرها عدة مرات أنها تصلح أن تكون مرشدة سياحية ولكنها رفضت ، فضلت أن تكون مرشدة لقلبه فقط ، بالفعل هو بحاجة إلى شخص يكون النصف المشرق في حياته ، فهو يتميز بالكتمان الشديد والحزن المزمن ، كما أنه "مزاجي " الشخصية ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، سريع الحزن ، سريع الفرح ، متطرف في الكثير من الأمور لذا وجد تسليته الوحيدة في اختلاق القصص القصيرة .

مرت الدقائق في السيارة دون أي حديث والذي لم يعجب دينا فشقت صمت المكان بجملة اعتيادية : الموسيقى الهادئة مناسبة لهذا الطقس المميز
وافقها حسام في فتور ثم أردف قائلا :
لم يتبق إلا دقائق معدودة ونصل إلى وجهتنا ، وهناك سنستمع إلى الموسيقى الهادئة والصاخبة والمهرجانات وكل شيء. ضحك بعد أن أنهى جملته والتي على إثرها ضحكت دينا مجاملةً له.

وقف حسام بسيارته أمام Cafe Bird ، أول مكان تعارفا عليه بعد محاولات عديدة من عائلتيهما ، أول مكان التقت فيه العيون وتعاهدا على عدم الفراق ، صعدا الطابق الثاني وسارا إلى الطاولة المميزة ، تلك الطاولة شهدت الكثير من حكايات وحفظت الكثير من الأسرار ، وشهدت كتاباته وانفعالاته الأدبية وقراءاته ، في ركن مميز بجوار الواجهة الزجاجية للكافية والتي تطل على الشارع الرئيسي ، أجلس حسام دينا على الكرسي المواجهة للحائط ، بينما هو جلس في مواجهتها بعد أن وضع حاسبه المحمول على الكرسي الثالث، دقت الساعة الواحدة ظهرًا عندها طلب من النادل مشروبهم المفضل (قهوة فرنسية) .

بادرت دينا : لقد نشرت أمس أول حلقة لروايتك الجديدة ، كيف رأيت ردود الأفعال ؟
أجابها باقتضاب :
لا جديد.. قليل من التفاعل ، كثير من الإشارة للأصدقاء ، و إسهاب في تعليقات تشجيعية كالعادة .
شعرت دينا بخيبة أمل تحتل ملامح وجهه فقالت بسرعة: لا بأس.. أنت لك إبداعات عديدة من قصص قصيرة منوعة ، أنت كتبت قصص رعب وقصص بوليسية واجتماعية وهذه الرواية لون جديد عليك وحتى يعتاد القراء لونك الجديد لابد من وقت ، أذكر أنك نشرت جزء منها من قبل منذ عدة أشهر ثم توقفت.
رفع حسام حاجبيه في دهشة مما غيّر ملامحها وتوردت وجنتاها في خجل ، كيف عرفت بهذا الأمر فلم يكن قد تم خطبتها بعد ، لمعت عيناه عندما فضحها خجلها ، يبدو أنها كانت تراقبه منذ زمن ، أغفل تلك الملحوظة وأسرها في نفسه ثم قال : بالفعل.. لقد نشرت عدة حلقات وحذفتها فيما بعد.. وحاليا أضفت الكثير من التفاصيل لتخرج بصورة جيدة للقرّاء .
لمعت في ذهن دينا فكرة وسرعان ما أطلقتها كالبرق : ما رأيك في أن تكتبها كلها بدون نشر ثم نوثقها في طباعك ورقية.
صمت حسام وقبل أن يتحدث أردفت :
الفيسبوك صار مثل الهولوكوست ، محرقة للجميع ، سرقات هنا وهناك ، خصوصا مع الوجوه الزائفة في كثير من الأحيان.
استحسن حسام فكرتها ولم تعطه فرصة للحديث وقالت بحماس :
للتاريخ.. وثق روايتك وأفكارك بدل من نشرها ثم سرقتها وضياع حقوق الملكية الفكرية ،نحن في زمن اللامحدود في كل شيء ، الفيسبوك صار بلا قاع ، كالزئبق لا تستطيع إمساكه كما أنه يطغى عليه مشاعر الأنثى المتقلب في معظم الأحيان .
ضاقت عينا حسام ثم سألها في مكر :
لهذا توقفتِ عن النشر ؟

أجابت وهي تحرك رأسها بعلامة الإيجاب : طبعا.. سنوات وأنا مشتركه في جروبات أدبية وأعطت لي قدر من الإحباط ما يكفي لسنوات لذلك سأتفرغ للقراءة أكثر ولكن بعد الزواج.

ابتسم حسام وقال بسخرية : إذن..فالزواج قاتل للإبداع.

ارتفعت حاجبيها الرفيعتين في دهشة و فغرت فاها في تعجب وتساءلت في ضيق :
إلى ماذا ترمي يا هذا ؟
ثم أمسكت بالملعقة الصغيرة هددت به حسام و كأنه سكين وقالت: وضح كلامك ؟
ضحك حسام ضحكة عالية انتبه لها بعض الحاضرين ثم أكمل : لا شيء.. لم أقصد.. من الممكن أن تواصلي إبداعك حتى بعد زواجك.. فأنتِ متذوقة للأدب وكاتبة أيضا.

حاولت دينا تغيير الموضوع فقالت في مرح :
أريد أن استمع إلى رواية (المصنع) ..شوقتني لمعرفة حكاية عُمر العسكري وقريته ومصنعه.. هل انتهيت من عنوان الرواية ؟
نظر حسام إليها مليا ثم قال : لا.. أسميتها مؤقتا اسم "المصنع " ولكنني أفضل عنوان آخر أكثر غموضا مثل (داخل الغرف المغلقة) .. ما رأيك ؟

لم يبالي بردها ، سرعان ما تناول شنطته لإخراج حاسوبه في حين شردت دينا قليلا ، وتأملت حسام في غضب مكتوم ، أنه ما زال يعيش في غموضه ، الكثير من الأسرار يختبئ تحت جلده وفي أعماقه ، رغم محاولتها الدائمة في كسر هذا الحاجز الغير مرئي ، إلا أنه في كل مرة يضع حاجزًا شفافًا جديدًا ، يضع تلالا من الجليد بينهما وتخشى أن تتراكم وتصبح جبلا غير قابل للذوبان ولا تقدر على إزاحته فيما بعد .. وقررت أن تصبر للنهاية.. إما أن يفاجئها أو تفاجئه.

فتح حسام حاسوبه وطلب فنجان قهوة ساده و لدينا عصير من المانجو..فاعترضت ثم قالت في مرح طفولي :
سأطلب فنجانا خاصا من مشروبنا المفضل ثم قُص عليا ما كتبته .. فأنا أحب هذا الخليط الممزوج من القهوة الفرنسية مع حكاياتك من نبرات صوتك.

ابتسم في خجل ثم شرع في القراءة.

(٤)

البداية

على غير عادة سبتمبر الذي كان يقترب من نهايته ، والذي تميز بالفصل الخريفي ، فبدلا من أمطار الخريف التي تسقط على الأرض بشدة والريح باردة تقلب أعشاب الحقول ، ظهر عكس هذا تماما حيث أن نهار هذا اليوم بدأ غريبا حيث استقرت الشمس في كبد السماء تعلن احتجاجها على ما يحدث داخل

المصنع (فاكتوري) ، جلس المئات من العمال البسطاء الذين يعملون في المباني المختلفة داخل المصنع على الأرض غير عابئين بسخونة الأسفلت ، الأحاديث تسري بينهم في غضب مكتوم ، ظهرت منشورات بين أيديهم في الأسابيع الماضية تذيلت باسم (مجددون) في البداية كانت تدعو إلى الاحتجاج لعدم صرف العلاوات ثم دعت لإضراب آخر بسبب تدني مستوى المعيشة وعدم وجود خدمات مناسبة للعاملين ثم تطورت الأمور وقاموا بدعوة المئات إلى تسيير مسيرة وموكب بعد ظهر اليوم باتجاه الساحة الواسعة أمام الإدارة العامة للمصنع .
وصلت الأخبار إلى عمر العسكري بأن هناك خلية سرية دعت إلى العصيان المدني والإضراب العام بعدما فشلت الاجتماعات مع رؤساء الأقسام وأصحاب المصنع، مما سقط في يدي نائب مدير الأمن الذي قال : ملتزمون بالتفاوض لكن لا فوضى بعد اليوم.

في تلك اللحظة وأثناء تواجد الاحتجاجات وصل عمر العسكري وخرج من سيارته السوداء من نوع جيب (انفينتي)، فقد أفاق صباح اليوم على رنين مزعج لهاتفه وكان على الطرف الآخر صوت العمدة الذي بدا منزعجا و عبّر عن استيائه لما آلت إليه الأمور من اعتراضات واحتجاجات واعتصامات وبلغ إلى مسامعه أن مستقبلا سوف يقومون بعصيان مدني وهذا خطر على أمن وأمان القرية وأهلها ومصالحها.

أسقط عمر سماعة الهاتف في اقتضاب وتبدلت ملامحه في غضب ، وخطا إلى وسط الغرفة ، يدعك وجهه براحة يده في عصبية كأنما يغسله بماء خفي ، وتساءل عن سر التحول العجيب لهؤلاء العمال في الآونة الأخيرة، فالكل يعمل بالمصنع في رضا تام ، ومثلها مثل أي مؤسسة اقتصادية تمر بنوع من النكبات التي تؤثر بالسلب في صرف علاوات الموظفين أو تأخير مرتباتهم كما أن المصنع قديم ونشأ منذ ما يقرب من مائة عام وفي محاولة مستمرة لمواكبة العصر ومتطلباته ، القرية لم تشهد أي نسبة بطالة ، بل وتوارثوها جميعا بلا استثناء ، القوانين الصارمة التي وضعت لأهل القرية جعلت الشباب والفتيات يعملون في وظائف عديدة بالمصنع في فصل الصيف ويثبت إذا لم يُكمل تعليمه

بأجر كامل ، أما الشباب الذين أكملوا تعليمهم فإنهم يشغلون وظائف إدارية وإشرافية على الباقي ، لعشرات السنين وهم على هذا النظام ، لماذا إذن السخط والغضب الذي تولد بفعل ما يُسمى أنفسهم مجددون ؟ ، أفاق من شروده على صوت زوجته التي دعته لتناول فطوره ، جلس على طاولته وشرد مرة أخرى في التغييرات التي حصلت في السنين الماضية ، أمسك بكسرة خبز وهم أن يتلقاها في فمه حتى ظهر له صور لشخصيات عديدة.. العمدة ، و سامي الفقي و الفكر التجديدي ومحاولة استقطاب بعض البارزين من الشباب الذين يعملون في المصنع، وهذا الطفيلي (عبد الغني توفيق) الذي سمح له العمدة بالدخول إلى المصنع وأعطى له بعض الصلاحيات في التطوير والتجديد، كل شيء كان غامضا في البداية ولكنها كانت بداية النهاية، رفع ساعده الأيسر أمام أرنبة أنفه وعلى مقربة من عينه ونظر إلى ساعته وقال مستعجلا:
" يجب أن أذهب الآن، المصنع مريض جدا ".

خرج عمر العسكري من سيارته مترجلا وشقت خطواته الواسعة صفوف المتظاهرين وألقى بالسلام على كل من يقابله باسمه ونثر الابتسامات عليهم في إشارة أنه معهم وليس ضدهم ، حتى وصل إلى الرصيف المقابل للمتظاهرين ثم قال في صوت جهوري : رسائل المتظاهرين قد تم استيعابها واحذروا مِن الشيطان وزبانيته وأن ما نمر به من أزمات اقتصادية شأن طبيعي يحدث في كل دول العالم وليست قريتنا فحسب ، ولكي نستمر في العطاء لابد من الإنتاج ويجب عودة الحياة الطبيعية واستعادة العمل بالمصنع بعد ارتفاع حجم الخسائر التي تكبدها المصنع اقتصاديًا ومعنويًا .

أنهى كلمته الموجزة وانتظر ردود أفعال المتظاهرين الذين استجابوا له ولكلامه بشكل فاتر ، استمعوا له وأنصتوا لما في قلوبهم من شأن كبير ، وطالما رأوه الرجل الأقوى والمرشح الأكثر حظا للعمودية ، كان يمسك بالعديد من الملفات الداخلية والخارجية بالمصنع ، كما أنه يُعد مستشار العمدة في الظاهر ، والناصح الأمين لعائلة الفقي من الباطن ، ومراقب لتحركات عبد الغني داخل وخارج المصنع، والإشاعات تهمس في الأذان أن حاشية العمدة داخل قصر العمودية يعدون المزيد من المؤامرات التي استهدفت إبعاده من المصنع، ولأنه بعيدا عن

الأضواء وعن الصراعات التي تزايدت داخل العمودية والمصنع واحتفاظه بمنصبه وتأدية واجبه على أكمل وجه بالإضافة إلى حب الناس ، تجمع كل هذا وخلق حصنا منيعا حماه من مخططاتهم.

انفض الجمع وتأكد من أن الجميع ذهب لمباشرة عمله ، صعد إلى مكتبه وطلب فنجان قهوة سادة ، وبعد أن أمسك بها، وقف بجوار الشباك المفتوح يحملق في الفضاء تارة وإلى أرض المصنع تارة أخرى ثم يذهب ببصره أبعد حيث الأراضي الزراعية رآها كأنها تبتسم له ، ابتسم وجبهته تتجعد ثم قال لنفسه وهو متبرم:
(لقد اعتدنا أن نعيش ومعقد آمالنا جو حسن ، حصاد جيد ، مغامرة عاطفية عذبة، أملنا أن نصبح أثرياء ، أو نتولى وظيفة مرموقة، ونقول لأنفسنا: غدا ستتحسن الأحوال ، وفي خلال مائة عام من إنشاء المصنع ستصبح أحوالنا أحسن ، ولا أحد يجعل هذا العهد السعيد يقبل غدًا، على العموم ، مستقبلا سوف الحياة تصبح أكثر تعقيدا يوما بعد يوم ، والناس تصبح أكثر حمقًا ، وأكثر عزلة عن الحياة ، لا أعلم كيف ولكن هذه قراءتي لهم).
طرقات بطيئة على الباب جعلته يفيق من شروده وسمح للطارق بالدخول ، دخل رجل طويل منحدر الكتفين ، كانت عيناه قصيرتي مدى النظر ، صافيتين ، تشبهان عيون الأطفال ، و تبدوان مضطربة ، بدأ يذرع أرض الغرفة بساقيه الطويلتين وفي أصابع يده سيجار يتصاعد منها الدخان ، دفع يده اليسرى في جيب بنطلونه ، اغترف نفسا من السيجار و ظل يسعل سعال جاف ، صدر من شفتيه صوتا موحشا وقال:
لا يعجبني حال المصنع هذه الأيام يا سيد عمر.

جلس عمر على مقعده غير مرحب بهذا الضيف الثقيل على قلبه ، إنه عبد الغني توفيق ، مندوب عائلة الغول لتطوير المصنع ، يحب الدخان المنبعثة من السيجار خانقة و تثير أعصاب عمر ولكنه آثر ضبط النفس وقال باقتضاب :
ما الذي تراه حتى لا يعجبك ؟
تحدث عبد الغني ببطء كأنه عازف عن الحديث وينتزع الكلمة بعد الأخرى في جهد واضح:

أريد الإصلاح ، التجديد، التغيير، المصنع قابل للهلاك شكلا وموضوعا ويجب أن يدخل في طور جديد يواكب العصر ، الإدارة تسير بمبدأ الموظف وليس المبتكر المبدع.
ابتلع عمر الإهانه بصعوبة ووجد عبد الغني مملاً للغاية فأردف قائلا :
وما أدراك أن هذا لا يحدث ، كل ما هنالك أننا نسير بترو وليس باندفاع ، المصنع في رَحِمِه مصانع شيدت في السنوات الماضية تواكب العصر الحديث ، ومستقبلا سنلغي أقسام ونبدلها بأقسام أخرى والخطط موجودة و..
قاطعه عبد الغني:
على الورق ، خططكم تم تحنيطها واحتفظت بها في معبد الأرشيف، لقد سألت المهندس أسامة شاهين عنها وهو أبلغني بكل التفاصيل.

نفخر عمر بأنفه وقال : ومن أذن لك بالإطلاع على هذه الأسرار ؟
بابتسامة أجاب : العمدة.. سلطان العمدة.. صاحب أكبر أسهم في المصنع وأخوه هشام مدير المصنع ، وسامي الفقي ثان أكبر مساهم في المصنع ، غير صاحب الأرض ..يوسف الغول .
احتقن وجه عمر وضم أصابع راحته في غضب ‘كأنه سوف يلقي عليه قبضة صاعقة تهوى على صدغ هذا الأرعن الجالس أمامه، ابتلع ريقه ثم قال : حسنا.. أرى لديك مشروع تطوير وتجديد، هل لديك ما يثبت كلامك أم أنه مجرد أوهام وشعارات زائفة ؟
ضحك عبد الغني ضحكة عالية وقال :
أرجوك سيد عمر ، لا تحاول استفزازي و لا تجرب ، أنا يجري في عروقي دماءً إنجليزية ، كما أنني لم أتسلق الأسوار أو دلفت كاللص من الباب الخلفي ، أنا عرضت خطط ومشاريع علي السادة أصحاب المصنع ووافقوا عليها ، لم يبق إلا العمدة الذي وافق على التجول بحرية داخل فاكتوري ولم استطع مقابلته ولم أجد طريقا إلا من خلالك ، فأنت تعلم هشام بالقطع ، العمدة سمح لي بالزيارات المتكررة ولكن بدون تدخل حقيقي وملموس .

امتعض عمر وغمغم : من أين هبط علينا هذا الباراشوت ؟

استطرد عبدا لغني : أقول لك من أين.

تعجب عمر من كلامه ، كيف سمع أفكاره ، هل قرأها في عينيه ؟ هل ملامحه لهذه الدرجة مفضوحة ؟
قال عبد الغني في حماس بعد أن أطفأ سيجاره الذي كان يقيده ثم أمسك به وكأنها عصا المايسترو :
أنا مهندس قديم ، وعمري تجاوز الستين ، ثري ، لست بحاجة إلى المزيد من الأموال ولكنني بحاجة فعلية إلى تخليد اسمي ، أنا معي شهادات من جامعات أجنبية و عملت بعدة دول أجنبية ولي إسهاماتي في مشاريع صناعية كبيرة إلا بلدي أنت تعلم أن بالخارج لا يهتمون كثيرا بمن ساهم في تقدمهم وتطورهم ، لأننا نأخذ مقابلا ماديا على ذلك ، وعندما عدت إلى بلدي ، بحثت كثيرا ووجدت أن أكبر مصنع في هذه المنطقة هو مصنعكم ، مازال فاكتوري أرض خام وخصبة لنمو مشاريع عديدة ومثمرة وتحقق أرباحا أكثر من المطروح حاليا ، ولحسن حظي أنه قريب من بيتي ولست في حاجة إلا لسيارتي لأعبر ثلاثين كيلومتر يوميا.

صمت عمر للحظات ثم بصوت منخفض قال :
سأحاول أن أوصل كلامك للعمدة في أقرب وقت ممكن.

قام عبد الغني بخفة لا تعكس عمره الحقيقي من فوق كرسيه ثم مال نحو عمر الجالس خلف مكتبه مستندا على راحتيه وقال :
بلغه تحياتي وان أوراقي جاهزة للاعتماد لديكم وخططي في حقيبتي لا تفارقني أبدا..سلام.

رمقه عمر بعينيه وهو خارج من غرفته وتمنى أن يخرج دخانه اللزج معه حتى لا يذكره بوجوده ، لم يرد السلام بل تنفس الصعداء ثم أطلق زفيرا هائلا وكأنه أزاح جبل ثقيل جثم على صدره وأطبقه، ثم ابتسم في تهكم وغمغم: ثرثرة بلهاء.

أزاح كرسيه جانبا ووقف أمام الشباك المفتوح مرة أخرى ثم حدث نفسه قائلا :

يبدو أن اللعب سوف يزداد إثارة ، المدعو عبد الغني توفيق وقع في خطأ لم يقصده.
ابتسم في مكر ودهاء وأغمض عينيه في هدوء.

(٥)
تعديلات

كان جالسا في بهو قصره كحاكم دولة ، القصر الذي ورثه عن الأجداد وحافظ على رونقه كأثر تاريخي ، رجل أبيض الوجه مشربا بحمرة وكأن خيوط الشمس الذهبية لم تعرف له طريق ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم بسبب قلة حركته ، عيون صغيرة حادة تحدق دائما في اندهاش ، بالرغم من تجاوزه

السبعين إلا أن كل من يراه يبالغ في فرط صحته ، أشيب ، منهكا قليلا ، والذي لا يعلمه الكثير أنه أسير لأنواع عديدة من الأدوية لأمراض مزمنة مختلفة من ضغط وسكر وتكاسل في الغدة الدرقية ، شارب خفيف احتفظ بلون رمادي مميز ، أصلع إلا من جانبي الرأس ، دائما يسير وجذعه الأعلى يميل للأمام وكأنه قابل للسقوط في أي وقت لذلك كان عكازه الأبنوسي جزء من جسده لا يتركه إلا عند النوم ، كعادته يرتدى جلبابه الأبيض المفضض و الذي يعطي له هيبة كبيرة كعمدة بلدته ، خرج من بهو قصره ووقف أمام حديقته التي يعتز بها ، الحديقة شهدت كل عمره منذ نعومة أظفاره ، انشرح صدره وهو يرى الشجر بأوراقه الخضراء الوارفة ، فقد خصص لها فريق زراعي خاص للعناية بها، سار ببطء ونزل بصعوبة على درجات السلم، آثر أن يقابل عُمر العسكري وسط الحشائش والأزهار الملونة ؛ حتى لا تكون الزيارة رسمية .

جلس سلطان العمدة على مقعده المبطن بالقطن الأصلي تحت أشجار الجوافة ، يحاول تشتيت باله بمحاكاة عصفور يغرد، كان الطير يشدو وهو مستتر في أوراق الجوافة الخضراء الداكنة ، والعمدة يسدد بصره في الأوراق ويضيق عينيه الصغيرتين الحادتين ، ويمط شفتيه كطفل و يصفر صفيرا خافتا، خطر على ذهنه المصنع ، ذلك الصرح الاقتصادي الكبير ، العملاق في كل شيء ، أسهم زادت هو وعائلته وعائلة الفقي منذ زمن بعيد ، عقود ومعاهدات إلزامية على الأرباح والخسائر ، بالرغم من أن الجزء الأكبر من الأرباح يصب في مصلحة أهل القرية من تعليم وصحة وغيرها من الخدمات الاجتماعية، وأن ليس كل أهل القرية يعمل بالمصنع ، فهناك عائلة لديها فدادين من الأراضي الزراعية ، تزرع وتحصد وتبيع وتشتري ، وتؤجر للمزارعين ما يريدونه من أقراط وفدادين والكل في حالة رضا وأمن وأمان ، إلا أن ظهر في الأفق شبح أرسلته عائلة الغول ، العمدة والفقي قاموا إيجار مساحات شاسعة منذ أجيال بعيدة من الغول لسنوات طويلة ، وكل جيل يغير في العقود طبقا للحالة الاقتصادية التي جدت ، والتي تنتهي عند زيادة في قيمة الإيجار ، فقد رفضت عائلة الغول قديما بيع الأراضي ، واكتفوا بالإيجار، ولكن الزمان تغير والأجيال تبدلت وسقطت بعض الأفكار والآراء ونشأت أفكار جديدة لم يستوعبها سلطان في مناقشاته مع عمر ، فالأخير أوضح له منذ عدة أشهر أن هناك خطط ومؤامرات تُرسم في

الغرف المظلمة وأن أصابع الاتهام تشير إلى تواطئ عائلة الفقي مع الغول ولكن سلطان العمدة لم يستوعب كل هذا ، وتصاعدت الأسئلة إلى رأسه وتساءل كيف لشركاء المصنع أن يتآمرون مع غيرهم ؟ ما الذي جدّ ؟
تذكر مقولة جده وهو يحكي عن الفلاح الحقيقي وأنه لا يفصح عما يدور في خلده على الفور أبدًا ، فهذا لا يلائمه وهو يعرف أن الناس تلقى الشخص الغبي في بساطة وفي غير مكر وهذا بالضبط هو ما يريده ،أن تقف مكشوف أمامه ، فيرى هو كل نقاط ضعفك في الحال.
تذكر حادث قديم منذ عشرين عاما ، عندما اتصل أحد أفراد عائلة الفقي بالعمدة وطلب التدخل لدى كبير العائلة لأن موقفه المالي سيء جدا ، وبالفعل تدخل عمر العسكري وقابل كبير العائلة وبعد مفاوضات لعدة ساعات وافق على إعطائه مبلغا كبيرا حتى يتمكن من سد الاحتياجات الرئيسية له ، هل هذا رد الجميل يا سامي ؟ بعد أن صرت كبير العائلة تتآمر ضد العمدة ؟ هكذا حدثته نفسه.

وقبل أن ينتهي من شروده وخواطره التي لاحت عليه مثل ذكريات مثيرة للشفقة انتبه لسماعه خطوات واسعة ألفها كثيرا فهي خطوات عمر المميزة مثل شخصيته تماما.

" هات ما لديك "
ألقى سلطان بجملته قبل أن يجلس عمر في مواجهته، بعد أن جلس واطمأن قال في سرعة :
عائلة الفقي
ماذا ؟
لقد رفعت لك تقارير كثيرة وحذرتك من خطر مؤامرة عائلة الفقي والغول معا ، ولابد أن لا نترك لهم ثغرات يمرون من خلالها ، اليوم ولليوم السادس على التوالي تجمهر عددا كبيرا يُقدر بالمئات في تظاهر غريب لأول مرة تحدث في تاريخ القرية والمصنع على السواء .

تأمل العمدة كلمات عمر وتمتم في غضب خفي كلمات غير مفهومة ، فقد كان فتح الطريق أمام عائلة الفقي للتحرك في ربوع القرية لإقامة مشاريعها المختلفة لخدمة أهل البلدة وفي نفس الوقت يبتعدوا قليلا عن التدخل في الشأن الداخلي للمصنع وإدارته ، ظنا أنه بذلك يأمن شرهم ومكرهم .

قال العمدة في اقتضاب :
والحل من رأيك ؟

أردف عمر في هدوء :
لا أرى حلا غير المفاوضات

صمت العمدة ثم قال بخبث ودهاء :
ولكنني أرى سن قوانين جديدة للمصنع وتعديلات في بعض مواد العقود التي بيننا وبين الفقي والغول.

ارتبك عمر في مجلسه واستقام جذعه العلوي في توتر وأخفى علامات ارتباكه وقلقه من جراء هذه التعديلات ثم قال بصوت خفيض:
سن القوانين في أيدينا ، ولنا كل الحق في ذلك ، إنما تعديلات في بعض بنود العقود التي بيننا ستكون بمثابة ثقاب الفتنة التي سوف تحرق الجميع بلا هوادة.. وهذا ليس في مصلحتنا.

حاول عمر أن يطلع العمدة بأمر المنشورات وحركة مُجددون التي لاحت في الأفق وأنها مجرد بداية لما هو أخطر وأعمق ولكنه آثر الصمت بعد أن لمح بطرف عينه سيدة تقف في شرفة القصر وكأن عينيها تتوعده بشيء غامض لم يفهمه ، سيدة العمدة ، قمحية البشرة ، متوسطة القامة ، يظهر من خلف رأسها خصلات شعرها والذي استدل وهرب من ربط رأسها لأنه من الواضح أنها لم تحكم غطاءه جيدا أظهرت أنها في عجلة من أمرها وكأن هناك من قال لها أن

عمر جالس مع العمدة في الحديقة الأمامية للقصر ، أخفض عينيه في أسى ،عندما رأى أن موقف العمدة كان عنيدًا .
ثم قال بغتة :
لماذا سمحت لعبد الغني توفيق بحرية التجول داخل المصنع والاطلاع على بعض أسرارها ؟

زفر العمدة بضيق وقال :
لن يصل لشيء.. لا تخشى شيئا.. انه مجرد بالون كبير يدّعي أنه يملك أفكارا لمشاريع جديدة وهو في الحقيقة غير ذلك.
قطب عمر حاجبيه وقال:
وكأنك تعلم شيئا لا أعلمه ؟
حرك العمدة عينيه تجاه عمر ثم قال :
المفروض أن ما يحدث هو العكس ، أنت الخبير الأمني للمصنع وتبلغني بتحركاته وتعلم مقصده وأهدافه.
تورد وجنتي عمر خجلا وعلى استحياء قال :
لا بأس.. فهو لم يصل لشيء ولن يصل ..كل ما هنالك أنني أخشى من السخط والغضب أن يزداد وأن تتغير الأمور للأسوأ.

لم يرد العمدة واكتفى بالصمت ، الأمر الذي دفع عمر أن يستأذن ، خرج عمر وكان أكثر قلقا وحيرة ، ولم يكن لهذا الحديث أن يهدئ من ثورته الداخلية أو يهديه طريق الصواب وأخذ يقول لنفسه : إن أكبر الجرائم ترتكب في سهولة ويسر ، إذا وزعت توزيعا يجعل نصيب كل فرد أصغر من أن يضطرب له ضميره !

(٦)

Cafe Bird

تناغم مثير من إضاءة الكافية مع الديكور مع مدخل موسيقى قصيدة "كلمات" ، جلسا حسام ودينا بجوار بعضهما على نفس الطاولة كالمرات السابقة ، تصادف سقوط أمطار خفيفة تركت أثرها على الواجهة الزجاجية ،قصيدة (كلمات) ملأت أجواء الكافية مخلفة أثرها الحاضرين مما جعلت دينا تتمايل في رقة مرددة بشفتيها بعض كلماتها ، والتي بدورها فتحت شهيتها للحديث عن الحب

يسمعني.. حين يراقصني
كلماتٍ ليست كالكلمات
يأخذني من تحت ذراعي
يزرعني في إحدى الغيمات
والمطر الأسود في عيني
يتساقط زخاتٍ.. زخات
يحملني معه.. يحملني
لمساءٍ وردي الشرفات

قالت دينا في دفء : هل أحببت من قبل ؟
قطب حسام حاجبيه وقال بثقة : بالتأكيد
ارتفع حاجبا دينا في دهشة لصراحته ثم قالت: هكذا.. بكل صراحة ! لماذا لم تكذب ؟
ابتسم حسام وقال : ولماذا أكذب ؟
صمتت دينا واختفت ابتسامتها وحلت محلها بوادر ضيق مما جعل حسام يعتدل في جلسته وقال :
هل تتصورين أن شاب مثلي بلغ الثلاثين ولم يعرف قلبه الضال طريق الحب ولو كان وهما ؟ أو حب من طرف واحد ؟أو إعجاب شديد بفتاة ما قد لفتت انتباهي ؟

وهل أنا أتصور أنك لم تُعجبي بشخص ما من باب الخيال ؟ هذه طبيعة بشرية وليست جريمة نُحاسب عليها.

بخيبة أمل قالت دينا بصوت خفيض :
كنت أتمنى أن يكون قلبك عذري.

تكلم حسام وكأنه يدافع عن نفسه :
و هل قلبك عذري ؟ لم يفتح بابه لأحد من قبل ولو على سبيل الإعجاب ؟ ألم تغاري من صديقاتك وهن يسرن مع أحبابهن في شوارع الجامعة وما حولها من مطاعم وكافيهات ؟

أسرعت في الرد بحماس :
لا.. لم يحدث.. وذلك بسبب وهو أنني كنت مرتبطة بوالدتي جدا وكانت صديقتي في نفس الوقت وأقص لها على كل شيء ، أمي أضافت إلى عمري تجاربها وتجارب الآخرين وكنت واعية لما تقول ، كنت أقص عليها حكايات صديقاتي من باب الدردشة لكن أنا قلبي عنيد وإذا أحب أعطى كل شغفه لمن يحب ولمن يستحق.

شعر حسام بالحرج ولطف من كلامه قائلا :
اعتذر منك.. والدتك رحمها الله كانت إنسانة عظيمة كما يبدو لي من حكاياتك عنها ، ونحن نتناقش عن الحب ولا ارمي بالتهم ناحيتك ، ولم أقصد جرحك ، فأنا أسعد إنسان في الدنيا أن يكون أول من طرق باب قلبك هو أنا..ولن أدافع عن نفسي ولكنني أحببتك بصدق ، الحب الناضج ، الحب الذي مر بمراحل مثل مراحل صناعة الحديد، القلب في البداية كالمادة الخام بلا تجربة ، له حدود ضيقة تتمثل في الجيران أو العائلة أو الشارع، وغالبا ما تفشل تلك التجارب ليبحث عن تجربة أخرى في محيط أوسع وأقربهم محطة هي محطة الجامعة التي تحولت وتبدلت من مكان للعلم إلى نادي كبير يضم الـcouples كما يطلقون عليهم ، وتلك مرحلة الصقل والصهر ، وعندما يتعرض لدرجة الانصهار يجد نفسه تجمع مرة أخرى ؛ كي يلملم أشلاءه ، فيخرج القلب للحياة بشكل جديد وقوي

وناضج وكأنه يقول أنا مستعد لتجربة جديدة وحقيقية وقادرة على تحمل المسئولية.
ابتعدت نظراته عن دينا وتأمل سقوط الأمطار في شرود وكأنه يستدعي ذكريات أثارت شجونه وما لبث أن أكمل حديثه :
دينا..
سكت حسام فانتبهت لصمته وقالت بعيون صافيه :
نعم ؟
اعتدل في جلسته ومال ناحية دينا ونظر في عينها وقال :
أنتِ آخر حصن لي في هذه الحياة ، لم يبق لي أحد إلا أنتِ، أحببتك بصدق وبكل جوارحي ، لو سقط هذا الحصن فأنا أصبح في تعداد الأموات.. وأعديني أن تبق معي .

تأملت دينا الدموع المتحجرة في مقلتيه ، وتعجبت ، أيقنت في أعماقها أن هناك سرا مدفون تحت جلده ولكنه لا يستطيع البوح به.. كانت تحبه بالفعل ، فقد امتلأ قلبها بحبه ولا تستطيع الاستغناء عنه مهما حدث ، على قدر سعادتها بكلماته التي جعلها محلقة في الفضاء ،إلا أنها مازالت تسير على الأرض .

وأنا.. كالطفلة في يده
كالريشة تحملها النسمات
يهديني شمسًا
يهديني صيفًا
وقطيع سنو نوات
يخبرني أني تحفته
وأساوي آلاف النجمات
و بأنـي كنـزٌ
وبأني أجمل ما شاهد من لوحات
كلماتٍ تقلب تاريخي
تجعلني امرأةً في لحظات

لانت قسمات وجه دينا لما سمعته ونظرت إلى الأمطار عبر النافذة وقالت بغتة :
ما رأيك في مغامرة بسيطة تحت المطر ؟

ابتسم لما رأى من وجه طفولي يبعث على البهجة وكاد أن يرفض هذه الفكرة الجنونية لولا أن نزار قباني ذكره بباقي القصيدة عندما غنتها ماجدة الرومي :

يبني لي قصـرًا من وهـمٍ
لا أسكن فيه سوى لحظات
وأعود.. أعود لطاولتي
لا شيء معي.. إلا كلمات.

قام من مكانه في سرعة ومد يده وانحنى كأمير وهو في استقبال أميرته التي نزلت من على درجات سلم القصر الملكي ، توردت وجنتيها ولمعت عيناها ، مالت أمامه على استحياء ، ترك قيمة "القهوة الفرنسية " على الطاولة ، ثم عانقت أصابع راحته أناملها في رقة وقبض على باقي راحتها بقوة وأطلق لنفسه العنان ، احتضنت ابتسامته عينيها في دفـء فلم يشعر أحد منهما ببرودة الجو ،هدأت الأمطار تماما بعد أن شهدت لحظات رومانسية حسام ودينا ، وحل الدفـء بعد أن رحل البرد مطرودا من رحمة المحبين .

كان حسام قد ترك سيارته أمام الكافية وسارا متجاورين على الطرقات ، لم يشعرا برائحة الأمطار التي ملأت كل مكان ، لاحظت دينا مجموعة من الفتيات في سن المراهقة يبتسمون ويضحكون في خجل عندما وقف حسام أمام محل ورد واشتري بوكيه من الزهور المختلفة ثم أهداها لدينا التي خجلت من أعماقها لرقته وبعدها أخرج جواله من معطفه والتقط عدة صور لهما ، كانت الضحكات صارت مسموعة من الخلف والتي أثارت حفيظة دينا والتفتت لهن وابتسمت دون أي كلام.

هل التقطوا لنا أي صور ؟ سألها حسام والتي أجابت بالنفي فأردف :

إذن سنصبح حدوتة الفيسبوك تلك الليلة عن شاب وفتاة كانت تبكي ورق قلبه لها ثم أمسك بيدها وذهبا إلى محل ورد وأعطاها وردة حمراء وما أن رأتها في أحضان كفيها حتى طارت وعانقته وطبعت قبلة حانية على خده مع بعض الصور الرومانسية المصاحبة للمنشور ومئات الإعجاب وآلاف التعليقات التي تتمنى أن تحدث لها تلك القصة ويعيشون في وهم جميل من خيال صاحب المنشور.
ضحكت دينا ملء شدقيها من كلامه الذي يعتبر صحيح ، القصص التي انتشرت على السوشيال ميديا عبارة عن 5% من الواقع والباقي من الخيال والبهارات والبصمات ولا تعرف من أين يأتون بتلك الثقة في أحاديثهم وكأنه واقع ، ثم انتبهت لكلماته وتساءلت في دلال :
هل أنت غير مؤمن بالرومانسية ؟
رفع حاجبيه في دهشة : وهل للرومانسية إيمان ؟ الرومانسية لابد أن ترى بالعين ، أكذوبة المائة عام الأخيرة.
حارت عينا دينا دليل على عدم الفهم فقال:
لا يوجد رومانسية بين اثنين إلا وكانت العيون تلاحقهما بكل جوارحها ، الرومانسية عبارة عن انعكاس حرمان الآخرين من المشاعر والأحاسيس لذلك كل المشاهد السينمائية والصور بالمجلات نجحت في إشباع تلك الرغبات لهؤلاء المحرومين .

لوت دينا شفتيها في امتعاض وقالت :
أفسدت اللحظات الجميلة بواقعك أيها الحكيم.. هل هذا وقته ؟
ثم ضحكت وقالت :
حتى لو كذب.. فإنه كذب لذيذ وممتع وليس على الخيال حرج أيها الفيلسوف.

كانت السماء قد أعلنت عن غضبها وأصدرت إنذارا بالرعد مما جعل حسام يفضل العودة إلى إدراجها خوفا من أن يبتلوا تحت المطر، وعندها سألت دينا حسام عن والدته والذي كان رده مفاجأة كالبرق الذي فاجئهم أثناء سيرهم فوق الشوارع المغسولة بدموع الأمطار .

(ليست أمي)
رد صاعق جعلت دينا تنتفض من أعماقها ، وانتظرت حتى عادت إلى سيارة حسام ثم قالت :
كيف ؟ أليست تلك السيدة والدتك ؟
جلس حسام خلف عجلة القيادة وقال :
لا.. التي حضرت معي يوم الزيارة الأولى لكم ويوم الخطوبة هي خالتي ، هي التي ربتني ، وعشت عمري كله تحت سقف بيتها مع زوجها لأنهما لا ينجبان .
دينا: وأين والدتك ؟
رد بسرعة : ماتت
تعجبت من قوة كلمته وكأنه يلفظ الكلمة من فمه ، كادت أن تتحدث لولا مقاطعة حسام الذي بادر قائلا :
أمي توفت يوم ولادتي ، فقامت خالتي برعايتي في البداية ومرت السنوات وتعود الوالد على غيابي فتزوج من أخرى وتركني وسافر للخارج ، لذلك لا أراه إلا في المناسبات كالأعياد و يوم الخطوبة .
ألجمت الدهشة لسان دينا فهذا هو أول سر يطفو على سطح علاقتهم ثم تذكرت جملته:
(أنتِ آخر حصن لي في هذه الحياة ، لم يبق لي أحد إلا أنتِ، أحببتك بصدق وبكل جوارحي ، لو سقط هذا الحصن فأنا أصبح في تعداد الأموات.. وأعديني أن تبق معي)

قام بتوصيلها لمنزلها ثم ودعها وداعا لطيفا فلم يكن يريد تعكير صفو هذا اليوم الجميل الذي بدأ بالحب الرومانسي وانتهى بالحقيقة المؤلمة.
تركها في حيرتها وسار بسيارته وما أن انفرد بنفسه حتى ضغط على الساوند كلاود ثم سمع أغنية لماجدة الرومي ..أغنية لو سمعتها دينا ازدادت حيرة فوق حيرتها.

لن أعود

بين السماء وفيء عينيه الغد
وجنون قلب عاشق والموعد
ومسافة من لهفة وتشرد
ومسافر في زرقة.. ما همه
اغتيل منديل أو انتحرت يد

أنا شئت أرحل.. لن أعود إلى سراب
وأهيم في دنياي احترف الغياب
أحرقت دمعة ذكرياتي
حطمت سجني والقيود
من قال إني قد أعود
وأبيع ثانية حياتي
وحياتي.. أنا لن أعود
اغتيل منديل أو انتحرت يد

ما كان كان.. وليس لي إلا غدي
تبنيه آمالي الكبار
ما كان كان.. فيا حياة تمردي
وتجددي نورًا ونار
أنا شئت أرحل حسبكم أمس مضى
فإذا حزنتم غاب حزني وانقضى
وإذا بكيتم سُرّ في وجهي الرضى
أنا لن أعود
اغتيل منديل أو انتحرت يد

(٧)

اغتيال

عادة الحياة لطبيعتها بعد عدة أيام من مواجهة عمر للعمال فهدأت الأجواء في المصنع قليلا ، بدأ العمال في الانتظام في سير العمل وصار كل شيء على ما يرام ، إلا أن عمر ما زال يشعر أن هناك أصابع تعبث في الخفاء ، موجات من الشائعات والكذب والتدليس حول موقف عُمر من العمدة بدأت تغطي المصنع وتسري كالدخان الأسود داخل البيوت، الشائعات كالثعبان تلتف حول الفريسة في هدوء وانسيابية حتى تُحكم قبضتها ثم تقضي عليه ، هدوء غريب ينذر بوقوع عاصفة جديدة ، قلب عمر القوي يخفق بشدة ليس خوفا على منصب أو جاه إنما

خوفا من وقوع الفتنة بين الناس، ما يخشاه قد حدث دون أن يعلم ، ففي صباح ذلك اليوم استيقظ العمال في المصنع على ملصقات تحمل صور لعمر العسكري ومكتوب عليها (مدير المصنع والعمدة القادم) تم تعليقها على الجدران الداخلية والخارجية ، ثار جدل كبير في كافة الأوساط وتصاعدت الأسئلة إلى الرؤوس محدثة جلبة حقيقية بينهم ، تساءل بعضهم: من يقف وراء هذه الملصقات ؟ وما الهدف منها ؟ ولماذا هذا التوقيت ؟ ومنذ متى وعائلة العسكري تتجه إلى العمودية وإدارة المصنع ؟ وخاصة أن عُمر لم يُرزق بأولاد ذكور وأن لديه ابنتان فقط ومتزوجات ! ، ثار عُمر في أعماقه عندما تلقى تقريرا عاجلا عن هذا الحدث من نائبه ، ولكنه طلب التكتم على هذا الأمر وحذر من خطورة نشر أي معلومات حوله ، وأمر النائب والمساعدين بتمزيق هذه الملصقات فورا .

حل المساء بسكونه المعتاد وخيم الهدوء على البلدة إلا قصر العمدة ، أستدعى عمر على عجل ، كانت الأجواء في القصر مشحونة بالغضب والغليان حيث وقف مأمور الشرطة في منتصف بهو القصر وقد انتفخت أوداجه ، ووقف هشام أخو العمدة متسمرا في مكانه من جراء الذي حدث ، دخل عمر القصر بخطواته الواسعة المميزة ، ألقى السلام على الحضور ولم يجرد رد واضح الا من همهمات بسيطة ، لم يفهم في البداية سر وقوفهم بهذه الطريقة ، وقفت زوجة العمدة على الدرجة الرابعة من السلالم الداخلية للقصر مستنده بظهرها على الجدار ، هشام ملامحه تائهة بين الجميع ، شق الصمت سؤال عمر : ما الذي حدث ؟ وأين العمدة ؟
رد هشام في خفوت : العمدة تعرض لمحاولة اغتيال.

***

في صباح ذاك اليوم وقف سلطان العمدة أمام مرآته يلقي النظرة الأخيرة على ملابسه الرسمية التي ارتداها استعدادا للذهاب لمصنع (فاكتوري) في محاولة منه للاستمتاع لشكاوى العمال ، وتلبية مطالبهم ، ونوى أن يعطيهم حوافز مالية قبل شهر رمضان ، تأكد تماما أن كل شيء على ما يرام ، الحلة الرسمية بالنسبة له أمر مهم لأنها تعكس مظهره الخارجي وتبعث الهيبة في نفوس الآخرين ،

أمسك بعكازه وسار بخطوات ثقيلة ، في غضون عشر دقائق كان قد وصل لباب القصر ، وما إن خرج منه حتى وجد سائقه في انتظاره عند الباب الرئيسي للقصر ، لم يشعر بارتياح عندما رأى سيارته المرسيدس الفخمة في انتظاره ورأي أن يبدلها بسيارة أخرى تتناسب مع المصنع وعماله حتى لا يتصوروا أنهم متعالي عليهم ، في هذه اللحظة كان هشام يجلس في الحديقة مع زوجة العمدة ، هشام تخطى الخمسين من العمر ، مُطلق ، نحيف الجسم وأطول من أخيه العمدة ، طيب القلب ، القلب انكسر بعد طلاق زوجته نظرا لعدم الإنجاب ، حاول أن يكلمها كثيرا أن المشكلة وراثية والدليل على كلامه أخيه العمدة نفسه ، إلا أنها طلبت الانفصال ورفضت رغد العيش والقصر وحكامه وما يحوم حوله من مشاكل لا تنتهي ، وخاصة زوجة العمدة العنيفة معها رغم أنها نفس الحالة ، هشام لا يتحدث كثيرا عن نفسه ولا حياته ، منطوي أغلب الوقت ، يباشر عمله في إدارته للمصنع في صمت ، ليس له موقف ، يرى أن الدنيا زائلة وأن الصراع عليها ليس منه فائدة ، كانت زوجة العمدة تجلس معه وتتساءل في خبث عميق : من سيرث العمودية وهما بلا أولاد ذكور ؟ ، لم يهتم هشام كثيرا بكلامها وأن هناك حكمة من الله عز وجل لهذا المنع ، لم يعجبها كلامه المحبط للنفوس ، تمنت من داخلها أن يقوم من مجلسه ويغادره ، وحقق الله أمنيتها بأن أشار العمدة وطلب من هشام الذهاب للمصنع بسيارته الخاصة وأرسل للسائق أن يلحق به، سار العمدة مع هشام بضع دقائق حتى خرجا من الباب الفرعي للقصر حيث تتواجد سيارة هشام، هشام لا يحب أن يضع سيارته داخل الجراج أبدا ، على مهل ركب العمدة بجوار هشام ، وما إن أغلق هشام باب سيارته و بعد أن تأكد من استقرار العمدة بجواره وهم بالسير حتى سمع صوت طلقات رصاص مصدرها الناحية الأخرى من القصر.

***

على الناحية الأخرى وبعد أن أخذ السائق الأوامر من العمدة ، تحرك بهدوء وقام بفتح الباب الرئيسي للسيارة و ما إن تحركت سيارة العمدة حتى فوجئ سائقها بطلقات نارية تُصوب تجاهه أول طلقة هشمت زجاج السيارة الخلفي و باقي الطلقات توزعت على الجوانب الخلفية للسيارة ، ارتعدت مفاصل السائق وألقى بجسده بسرعة خرافية إلى الباب المقابل وفتح الباب وأثناء إلقاء جسده على

الأرض كانت قد أصيب ساقه الأيسر بشظايا الزجاج الذي تحطم على الفور ، وهنا اشتبك الحرس الواقف أمام الباب الرئيسي في لحظتها مع مطلقي النار وهرب الجناة من موقع الحادث ، في نفس اللحظة كان هشام أمسك بيد العمدة ودخلا القصر بعد أن هدأ تبادل إطلاق النار ، خيم الصمت على المكان ، كان الجميع في حالة ذهول مما حدث ، تحركت زوجة العمدة بسرعة و هاتفت مركز الشرطة.

***

-وأين العمدة ؟

سأل عمر وكانت الإجابة فورية من هشام فأخبره أنه في المكتب وأن العمدة يريده بشدة ، على الفور وبخطوات واسعة دلف عمر إلى مكتب العمدة بعد أن طرق الباب عدة طرقات سمع صوت العمدة من الداخل يأذن له بالدخول ، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها عمر هذا المكتب الفخم ، فهو يُعتبر مكتب العمودية على مر الأجيال ، ما إن تفتح الباب حتى تجد المكتب الضخم في المقابل ، تتوسط الحائط الخلفي للمكتب صور العُمد الذين تولوا أمر القرية ، وعلى الجانب الأيمن مكتبة كبيرة بها كتب قديمة ومجلات أقدم وصحف قديمة وحديثة ، وملفات هامة بالمصنع وشؤون القرية ، وعلى الجانب الأيسر انتريه كامل مكون من ثلاث قطع وطاولة زجاجية على أرجل خشبية ذهبية اللون ، جلس عمر على الكرسي القابع ناحية اليمين والمواجه للعمدة ، كان العمدة مازال بحلته الرسمية التي ارتداها صباح اليوم ، جلس على كرسيه الفخم في حالة صمت ووجوم ، نظر عمر علي مكتبه وجد بقايا سجائر لم يرها من قبل وكأن العمدة ظل ينفث عن غضبه جراء ما حدث له ، كما أنه لم يصرح للخدم بالدخول لإزالة هذا الغضب الذي تحول إلى رماد ، لم يجد العمدة تفسير للذي حدث اليوم من محاولة اغتياله ، بدون أن ينبس ببنت شفه أخذ ورقة من فوق مكتبه وناولها عمر وأخبره بأن يقرأ المكتوب بصوت عال.

جف ريق عمر عندما أمسك الورقة بأنامله ثم قرأها بعينه أولا والتهم محتواها فلم يصدق ما رآه ، غير أن العمدة أشار له بيده دون أن ينطق :

(بيان حركة مجددون

نظرا لما آلت إليه الأمور في المصنع ، ونظرا للجمود من قِبل إدارة المصنع والعمدة ، وعدم اتخاذ اللازم ، فقد قررنا نحن العاملين بمصنع (فاكتوري) العصيان المدني واقتراح بترشيح السيد عمر العسكري لتولي إدارة المصنع).

صمت عمر للحظات ثم بصوت مبحوح قال بصعوبة: إنها الوقيعة يا حضرة العمدة.

ابتسم العمدة وقال في هدوء لا يتناسب بما حدث اليوم: هل تظن أنني سوف أستمع لهؤلاء ؟ أنا أعلم أن هناك دسائس ومؤامرات تجري في الغرف المظلمة ، أنا أثق بك ثقة عمياء ، غريب جدا هذا اليوم ، يوم تاريخي وسيُكتب في صفحات التاريخ وسوف تتحدث عنه الأجيال القادمة ، سيكتبون أن في صباح يوم (....) الموافق (---/---/----) تعرض العمدة لمحاولة اغتيال فاشلة ومساءً تم توزيع منشور انقلاب ضده .
أنهى جملته وضحك ضحكة عالية سمعها من بالخارج والذين اندهشوا من موقف هذا العجوز لدرجة أن زوجته شكت في عقله وبعدها قامت من مكانها إلى غرفتها تريح أعصابها التي أثيرت اليوم.

-- هل تشك في أحد ؟
تساءل العمدة
فأجاب عمر : ليس عندي دليل قاطع، كلها شكوك وظنون ، والشرطة أكيد ستبحث عن الجناة ولكن ما يشغلني حقا هؤلاء المتمردون والذين أطلقوا على أنفسهم حركة مجددون ، هناك خيوط خفية مرتبطة ببعضها ولا يوجد دليل عليها .

العمدة : اقترب موعد تجديد إيجار المصنع ولابد من الاتصال بالمحامي عبد الحميد الشرقاوي لإعادة صياغة بعض بنود العقود ، وعليك بعمل قوانين جديدة للمصنع.

صمت عمر مرة أخرى وسأل العمدة سؤالا مباشرا:

هل مازلت تصر على هذه التعديلات.

قال العمدة بحسم : بالطبع.. المفاجآت القادمة كثيرة.

ترك عمر العمدة غارقا في تفكيره في حين أنه بدأ يفكر في عائلات الفقي والغول ومحاولاتهم للوقيعة بينه وبين العمدة ، ما طمأن قلب عمر أن هناك أمر واحد لا أحد يعلمه غيرهما ، هذا الأمر هو الذي سوف يقلب الطاولة على الجميع..فقط مسألة وقت..خرج عمر من قصر العمدة وتذكر جملته
(أنا أثق بك ثقة عمياء)

غمغم في هدوء وأغمض عينيه ثم فتحها ليجد المجذوب أمامه ، خفق قلب عمر بشدة لهذه المباغتة الغير محسوبة ، وكاد أن يفتك به لولا أن المجذوب قال في هدوء محاولا امتصاص غضبه:

إنها البداية
ولكل شيء نهاية
أرضيت أم لم ترضى
ربك سيقول كلمته في النهاية
السر مازال في الخفاء
إذا انتشر بين الناس
سيكون وباء
والوباء إما دمار أو هلاك

أنهى المجذوب كلماته و تبخر بسرعة من أمامه تاركا عمر في حيرة من أمره ، وحدثته نفسه في أسى وحزن وظن أن ما فعله مع "السر" سوف يُدفن في غياهب الزمن ولكن كانت حساباته خاطئة تلك المرة ويجب التحرك فورا تجاهه قبل أن يتحرك هو.

(٨)

دينا

صعدت دينا إلى منزلها بسرعة وكأنها تلحق بشيء، دخلت منزلها ثم إلى مطبخها وقامت بتسخين بعض الأطعمة لها ولوالدها ، فيجب أن تحضر كل الوجبات قبل قدومه كما تعود، اطمأنت أن كل شيء على ما يرام فتركت المطبخ وتوجهت إلى غرفتها ، غرفتها هي الجنة الصغيرة ، على الحائط علقت صور أمها وأبيها، وصورة خطوبتها ، ووضعت على مكتبها صور مختلفة للجميع في براويز مختلفة الأحجام ، فتحت اللاب توب ثم بدلت ثيابها سريعا وألقت ملابسها على السرير في إهمال، ثم قفزت في حضن سريرها ووضعت اللاب على فخذيها وفتحت ملف وورد وكتبت :

حبيبتي نهى

افتقدك كثيرا ، لم أكتب لكِ منذ مدة ، أعتذر عن غيابي الفترة الماضية ، اليوم ذكرى رحيلك ، لا أستطيع أن أصدق مرور عاما كاملا منذ أن ودعتك ، لكن لا أشعر أنك غبتِ عنّي يوما ، رأيت طيفك يوم خطوبتي ، روحك كانت معنا ، مازلت جميلة كما كنت دائما ، أعلم سر ابتسامتك طوال الفرح ، جمال ثغرك وهو مرسوم عليه ابتسامة حانية أكدت لي ، نعم ، إنه الفستان الوردي الذي اتفقنا على ارتدائه يوم الخطوبة ، لا بأس، أختك أشرفت على كل شئ ولم تترك أي ثغرة تحدث في ذلك اليوم .

حبيبتي ،
لقد دعوت كل من اتفقنا على حضوره ، القاعة كانت ممتلئة ،أصدقائي وأصدقاء حسام قاموا بالواجب وزيادة ، هل تعلمين من الذي رق قلبي له ، والدي.. الأب الحنون لمعت عيناه كثيرًا ، كانت عَبراته تلمع في الظلام كما لمعت في النور ، لا أعلم إن كان يراكِ هو الآخر أم لا ، ولكنني على يقين أنه لمح طيفك الرقيق تحوم وترقص في فرح ، لا تخشي شيئا ، زوجك مازال يحبك حتى بعد رحيلك ، أراكِ تضحكين الآن وتورد وجنتيك من الخجل ، ألازلت تخجلين! المهم يا أمي أنني سأكتب لكِ كثيرًا الفترة القادمة ، سأسرد لكِ ما لا استطيع كتمانه في أعماق قلبي ، أنتِ من أوصيتني بالكتابة ولكنني توقفت بعد رحيلك وبعد خطوبتي ، الأهم يا قلبي ، أنا في حيرة من أمري مع حسام ، لا اشتكى منه بقدر ما هي فضفضة وقلق من المفاجآت ، حسام مازال غامضا ، المتعارف عليه إن فترة الخطوبة هي فترة الحب والعشق ، لحظات لن تتكرر بعد تحمل المسؤولية فيما بعد ، حسام يكتب رواية جديدة تلك الأيام ، سعدت جدا أنه عاد ليكتب بعد انقطاع طويل ، لكنني أراه حزينا ومكتئبا طوال الوقت، لم يكن كذلك قبل أن ألقاه ، أنا تابعته على السوشيال ميديا ، كثير الضحك و المرح والهزل أحيانا ، لا استطيع البوح أنني أحببته من أول نظرة ، لكنني تعلقت به وانجذبت إليه ، تذكرين (قصة الخطف) ، لقد خطفني حسام بالفعل ، لقاء العيون كان أقوى لقاء منذ بداية التعارف ، لا أعلم حقيقة ما به ؟ هل يتغير ؟ أشعر بالقلق حيال خطوبتنا وأخشى أن لا تكتمل بالنهاية السعيدة ، عندما أشعر بالقلق يجول بخاطري أنه مشغول

بروايته الجديدة وتطوير شركته الخاصة فاهدأ قليلا، حسام ملئ بالقصص والحكايات ، أمس وصف لي طفلين شقيقين يتسولان عند الإشارة ، في أقل من دقيقتين أحدهما حكى قصته وأن والده تركهما وهرب وتزوج من أخرى ، انبهرت بعينيه التلسكوبية في وصفهما ، لدرجة أنه لاحظ أن أحد الأسنان الأمامية للطفل الأصغر تبدو متآكلة بشكل غريب عن باقي الأسنان البيضاء ، أضحكتني ملاحظته الغريبة .

نهى،
حسام منحني اليوم ابتسامة ساحرة ، كاد أن يأكلني بعينيه عندما كانت ترقص قلوبنا تحت المطر ، كنت في غاية الحرج من الفتيات وهن يروا صوري أنا و حسام وباقة الورد ، كنت مرتبكة وخائفة وسعيدة ولكنها لحظات حتى أظهر لنا الواقع أظافره وكشر عن أنيابه ، اكتشفت أنه بلا أم أيضا، وأن التي رأيتها في بيتنا ويوم حفل خطوبتنا هي خالته ، لا أدري لما لم يخبرنا منذ البداية ، لا هو عيب ولا حرام ، وهذا ما يؤرقني ، السر ، أو أسرار، لا أدري بالضبط ، أحيانا أشعر بأن حسام حكيم.. فيلسوف.. وتارة أخرى أهوج.. عنيف.. متسرع.. عصبي وهادئ في نفس الوقت ، مثل البحر متقلب لكنني سعيدة بجنونه أحيانا حتى لا تكون حياتنا يشوبها الملل والرتابة ..هل تدري ، كنّا بجوار بعضنا وبجانبنا بركة كبيرة من المياه مجتمعة من الأمطار ولاحظ حسام أن هناك شاحنة كبيرة تقترب من البركة فصاح فجأة وقال : أسرعي يا دينا .
فررنا هاربين من أن تصيبنا المياه الراكدة وتبتل ملابسنا.. كنا نضحك بهستيريا جنونية ..ورأيت بعيني أكثر اللحظات صعوبة تتحول إلى الأكثر فرحا وسعادة عندما تكون مع من تحب.

قامت دينا على الفور من فوق سريرها بعد أن أزاحت اللاب توب جانبا وتوجهت للمطبخ وتأكدت أن الأطعمة قد تم تسخينها ثم عادت مرة أخرى إلى جزيرتها التي تقع في منتصف غرفتها وما إن هبطت عليها حتى أمسكت بالحاسوب مرة أخرى وكأنها تذكرت شيئا فأكملت ما كانت تقوم به :

نهي،،

هل تذكرين سارة ؟ نعم صديقتنا وجارتنا التي تزوجت مبكرا وأنجبت طفلين وطُلقت ..لقد عاشت قصة حب جديدة ولكن تلك المرة اختارت بعقلها وليس بقلبها ، خُطبت منذ عدة أيام لشاب يصغرها بسنة تقريبا ، ولكنها في مشاكل مع أخواتها ؛ غير متقبلين فكرة سيدة تتزوج من شاب أصغر منها في العمر وخاصة أنه لم يتزوج من قبل ، لازال مجتمعنا يعاني يا نهى وسيظل كذلك ، حضرت حفل خطوبتها ، كان بسيطا جدا، دعوت لها بالسعادة من كل قلبي.

حبيبتي
لن أطيل عليكِ ؛ محمود سوف يصل في أي وقت من عمله وأنتِ تعلمين أن زوجك لا يطيق صبرا ولا يحب الانتظار ، يدخل غرفته ويبدل ملابسه ويهبط فوق المائدة وكأنه في لقاء رومانسي هاهاها.
كما أن حسام أرسل لي جزء جديد من روايته سوف أقرأها .

قرة عيني .. سأكتب لكِ كثيرا جدا وأحكي كل شئ ، اعلم ان طيفك قريب منّي وروحك تعيش معنا ، أحس بدفئك وأنت بجانبي الآن تتكحل عيونك بتلك الكلمات .
تحياتي وقبلاتي ،،

نظرت دينا إلى ساعتها المعلقة على الحائط و قطبت حاجبيها وتساءلت : لماذا تأخرت يا محمود ؟ ما إن انتهت من جملتها حتى وجدت والدها أمامها ، فزعت فور أن رأته ، ضحك من رد فعلها وسألها : منشغلة مع من ؟ حبيب القلب أم حبيبة القلب ؟
ضحكت في سعادة وطارت فوق صدره وتعلقت برقبته وقالت : لا يستطيع أحد أن يشغلني عنك يا حبيبي.. كنت أكتب لنهى .
رق قلب والدها ولمست ارتعاشه خفيفة سرت في جسده ورأت دموع متحجرة في عينيه كالتي رأتها منذ ساعات عندما قابلت حسام ، ربتت على كتفه في حنان و جذبته من ذراعه لتناول الغداء.

تركا الغرفة في حين أن اللاب توب كان مفتوحا على جزء جديد من الرواية.

(٩)

ما وراء القناع

في ركن بعيد عن القرية ، حيث تقع استراحة عمر التي لا تتجاوز الخمس وستين مترا ، فتح عمر الباب الحديدي لاستراحته ثم دلف ليصعد على ثلاث درجات من

السلم ليجد أمامه الدور الأرضي والذي عبارة عن غرفتين وصالة صغيرة وحمام ومطبخ ، أُعد خصيصا لزيارات الضيوف ، صعد عدة درجات أخرى ليصل إلى الدور العلوي والذي يشبه الدور الأرضي في تصميمه ولكن الاختلاف يكمن في أن إحدى الغرفتين مخصصة للنوم والأخرى مكتب خاص به أسراره الشخصية ، فتح باب الشقة الخشبي بمفتاحه الخاص ، ثم أضاء الصالة ، ألقى مفاتيحه في إهمال على الطاولة المستقرة في منتصف الصالة وهم بخلع ملابسه استعدادا لدخول الحمام ، فهو يريد أن ترتاح أعصابه في هذا اليوم المشحون بالانفعالات والأحداث المثيرة والتقلبات الغير مفهومة ، بعد عشرين دقيقة خرج من حمامه ، وأعد لنفسه كوبا من الشاي الثقيل وصعد إلى السطح ليفكر في هدوء ، بمجرد أن جلس على كرسيه سمع صوت مألوف له تحت شرفة منزله ، إنه المجذوب كما يطلقوا عليه أهل القرية ، قام من مجلسه ونظر له نظرة حادة التي ارتجف لها المجذوب ثم قال كلمات غير مفهومة ولكنه سمع أخر كلمة "السر " ثم اختفى من أمامه كالبرق ، غاص عمر في كرسيه ثم فكر في مقابلة سامي الفقي والعرض الذي عرضه عليه اليوم.

****

في الوقت الذي تعرض العمدة لإطلاق الرصاص كان عمر في لقاء غريب مع سامي الفقي في مكان بعيد عن المصنع ، بناءً على رغبة سامي ، سامي الفقي رجل تجاوز الخمسين من العمر، أبيض البشرة ، قصير القامة ، خضر العيون ، اشتعل رأسه شيبا ، ممتلئ الجسم ولكنه في نفس الوقت يملك حيوية ونشاط لشاب في العشرينيات ، يمتلك مشاريع عديدة في القرية باسمه وهو المسئول عن باقي مشاريع عائلة الفقي ، رأسمالي ، طموح لأقصى حد ، له أسهم في المصنع باسم العائلة منذ زمن بعيد تكاد تقترب من العشرين بالمائة ، الفقي شاركوا في بناء العديد من المباني السكنية داخل المصنع للمغتربين ، وزادوا هذا العام في توسعة المسجد وإعادة دهان حوائط المسجد وإصلاحات في دورة المياه ، عائلة الفقي تاريخية ولها جذور عميقة، و بسبب مشاريع الفقي المتنوعة صار لها امتدادات

شعبية واسعة وخبرة تسويقية متميزة ، علم عمر أنهم في الآونة الأخيرة في تناسق اقتصادي مع عائلة الغول صاحبة الأرض.

جلس عمر مقابل سامي وبعد الاطمئنان عن الأحوال دخل سامي في موضوعه مباشرة وقال لعمر :
ما رأيك في العمودية ؟ لماذا لا تكون أنت العمدة القادم ؟
أبدى عمر دهشته من هذا العرض ، فمن المعروف منذ زمن ليس ببعيد أن الفقي تسعى جاهدة لنيل هذا المنصب والسعي في توريثه ولكن نفوذ سلطان العمدة أقوى وعلاقاته أكثر متانة منهم .

فقال : أشكرك على هذا العرض ولكنني رفضته و سوف أرفضه حتى ألاقي ربي ، فلست أهلا لهذه المهمة أنا جندي يعمل لصالح قريتي ولأهل بلدي وللمصنع فقط.

ابتسم سامي وكأنه يعلم الإجابة لكنه أحب أن يسمعها مباشرة واستطرد قائلا :
لن أخفي عليك سرا ، لقد نجحنا في إحداث بعض التوترات بين العمال في الفترة الماضية ، وهذا سيؤثر على أمن وأمان المصنع ، هذا الصرح الضخم يحتاج إلى إدارة جديدة وروح شبابية وفكر يواكب العصر ومتطلباته ، وقد ننجح في تصعيد التوتر والاحتقان الاجتماعي لتوليد بيئة متصارعة ، متوترة دائما ، ومنقسمة إلى أكثر من شطر في سبيل تعميق حالة الاحتراق داخل المصنع بحيث يعجز أي نظام بعد العمدة عن معالجة الانقسام.

دُهش عمر لما سمع من هذا التصريح الجريء وعدم خشية سامي من قوله أمامه وكأن هناك قوة تدعمه ، بعد هذا التصريح علم أن الفقي هم الأداة الفاعلة للاعتصام و للمخطط الجديد.

سأله عمر: ولم كل ذلك ؟ فأنتم عائلة عريقة وثرية ولستم بحاجة إلى السلطة في شيء ولكم حرية التصرف والتوغل والتوسع بمشاريعكم المختلفة
اعتدل سامي في جلسته ثم قال :

سلطان العمدة يحكم منذ أكثر من أربعين عاما، لم يتطور ولم يتغير ، ارتضى بالقديم ، انظر إلى خريطة العالم من حولك ، العالم كله يتغير وسوف نرى أشياء جديدة لم تكن تخطر على بال ، العقول تحتاج إلى زلازل لكسر نمطية التفكير ،لابد من مراجعة المسلمات ونسأل من جديد ونتعلم ، استقرار الأفكار في العقل لفترة طويلة لا يدل على النضج بل على الجمود والتآلف ، لذلك يجب له أن يهتز ويفرز أفكار جديدة.

لم يمنع عمر نفسه من الابتسام وقال : تغيرت كثيرا يا سامي ، لم تكن كذلك.

سامي : سُنة الحياة.
عمر : ماذا تطلب ؟
سامي : إما إدارة المصنع أو العمودية.
شاط عمر غضبا وانتفخت أوداجه وأشار بسبابته ناحية سامي وصرخ :
اسمع يا هذا ..أنا لا أخاف منك ولا من تهديدك ، هذه أحلامك أنت، لا تتدخل فيما لا يخصك ، وهناك عقود وبنود.. بمعنى أدق دستور قانوني وافقنا عليه منذ زمن مضى ، حذار بالمساس بمشاعر الناس واستغلال قلة حيلتهم ، وأكرر مرة أخرى حذار أن تلعبوا لعبة وخيمة العواقب ، أنا أعلم ماذا يفعل ثروت عز الدين في الخفاء ، أما المدعو عبد الغني توفيق فله صرفه أخرى وأن اجتماعكم الأخير ابتلعته على مضض، إذا لم يهدءوا جماعة الفقي ، فأنا الصندوق الأسود وسأخرج ما أعلمه.
تراجع سامي قليلا ولكنه حاول الثبات فقال:
أرجوك ، لا تفصح بهذه الجملة مرة أخرى وإلا حياتك في خطر.
ضرب عمر الطاولة الفاصلة بينهما وصاح :
أخبرتك منذ لحظات أنني لا أخاف ، المصنع إما حياة أو موت.

سأل سامي في دهشة : كيف علمت باجتماعنا ؟

مرت ثواني معدودة هدأت فيها أنفاس عمر بعد أن علم أنه امسك بغريمه وقال في ثقة وثبات :

أنا لست في حاجة لتكون لي عيون داخل مؤسساتكم ، أنا أعرف واجباتي جيدًا ، وأنا استطيع أن أقول لك أين كنت أمس وإلى أين سوف تذهب بعد لقائي هذا.

ارتفع حاجبا سامي في اندهاش وآثر السلامة في عدم الخوض في حديث آخر وهم بالانصراف.

تتبع عمر خطواته في هدوء وابتسم في دهاء .

****

انتهى عمر من تناول كوب الشاي ووضعه جانبا ، أرهف السمع قليلا ، فكان هناك خطوات تصعد على درجات السلم في هدوء ، خطوات ألفها جيدا ، مال برأسه ناحية اليمين وثبتت عينيه تجاه مدخل السطح ، مشرئب العنق ، لم يندهش من دخوله للاستراحة ؛ فهو الوحيد الذي يمتلك نسخة من مفاتيحها دون غيره ، لم يكذب المجذوب عندما هتف بكلمة " السر".

(١٠)
حوار

عاد الهدوء إلى القصر بعد مغادرة مأمور المركز وعساكره ووعده بالكشف عن الجناة ، أغلق القصر بابه تحت الحراسة المشددة ، صعد العمدة إلى غرفته وهو في حالة هدوء نسبي خاصة بعد حواره مع عمر ، فتح باب الغرفة ليجد زوجته قد أعدت كوبين من النعناع الساخن ، وجلست على مقعدها المفضل بينما تأملها العمدة في هدوء ، زوجته لم تكبر في العمر رغم تخطيها الستين ، بل بدت كامرأة ناضجة في عنفوان صحتها ، عيناها ازدادت اتساعا بعد رسمها بالكحل ، ازدادت وزنا وترهلت عن الماضي ظهر ذلك في ساقيها السمينتان و ثدييها الكبيران الثقيلان، ملامحها صارت جامدة عن الماضي ؛يبدو أن حرمانها من الإنجاب مع محاولتها التي فشلت مرارا وتكرارا حولت قلبها إلى قسوة غير مبررة ، لها نظرات حادة دلت على أنها متمسكة بالحياة لأقصى درجة .
بالرغم من ثقل اليوم إلا أن في نفسها حاجة للكلام ، بدا على شفتيها الارتعاش مثل غطاء براد شاي في رَحِمه ماء يغلي تحت وقود مشتعل.
باغتته بسؤال :
لماذا تُبقي على عمر العسكري في منصبه ؟
تفاجأ العمدة بسؤالها وأجاب في هدوء غريب:
ولماذا أُقصيه ؟
سارعت بالرد:
لا تجب على السؤال بسؤال.

تنهد وقال: بل هي الإجابة الصحيحة ، عمر لم نرى منه أي غدر أو خيانة ، كما انه جندي مخلص لعمله ولقريته ولجميع أهل البلدة .
تحمست في مجلسها وقالت:
وهذا ما أخشاه ، لديه كل ملفات المصنع والعمودية وقد يتحد مع الفقي و الغول و هؤلاء المتمردين من العمال وما عرفته من حركة مجددون.
أرخى العمدة جفونه ثم سأل :
فلنفترض أن كل هذا صحيح ؟ ما المفترض أن أفعل ؟
ألجمت المفاجأة لسانها ، بالفعل ما العمل حيال هذه المؤامرة ، صمتت لبرهة من الوقت أظهرت فيها غبائها وفكرها المحدود ثم سألت : والحل ؟
ضحك العجز في مكر :
الناس متطرفة بطبيعتها ، والذي يحدث اليوم حدث منذ زمن بعيد مع اختلاف الظروف والأحوال ، الناس التي رفعتك بيدها إلى السماء بنفس اليد تخسف بكِ إلى سابع أرض ، وليس ذلك فحسب ، فقد يردموا عليكِ التراب ويبكونك في نفس الوقت ، واللعب معهم لابد أن يكون بذكاء حذر ، اللعب بالخدع البصرية ، توهمهم أنك تركت الحبل على الغارب في حين أن تمسكينه بيدك وبكل قوتك ، وعندما يلف الحبل حول عنقه تجذبيه ، في بادئ الأمر سيشعر بالاختناق الخفيف ثم يتأوه وقد يندم و الخطأ أن تتركِ الحبل وتطلق سراحه ، الأصح أن تتركِ أثرًا عميقًا في رقبته ؛ حتى يظل يذكرها عند نومه وتزوره في أحلامه ويصير كابوسا على أرض الواقع..هل فهمتِ؟
بدا ملامح زوجته كأنها غرقت في بلاهة لانهائية وأدركت أنها لن تستوعب ما قاله مما خطر على بالها فكرها المحدود مرة أخرى وقالت في إسهاب :
لم أفهم كلامك مطلقا ، ولكن أخشى علي العمودية من الزوال بعد كل هذه السنوات ، ونحن لم نرزق بذكر يحمل اسمك من بعدك ، وأخوك في زهد عن الدنيا وعن المناصب .

أخذ كوب النعناع الساخن في هدوء و ارتشف رشفة بسيطة ثم تركه على الطاولة مرة أخرى وقال :

هناك حكاية قد حدثت بالفعل ، كان هناك رجل أعرفه معرفة جيدة ، ليس من عائلات العمدة ولا الفقي ولا الغول ، لاقيته يوما وسألته عن أحواله فأجاب مبتسمًا :
(لقد ملكت الدنيا بما فيها ، لدي وظيفة ثابتة وقطعة أرض ودخل شهري في ازدياد ، ورُزقت بزوجة محبة وابنة رائعة).
تركته منتشيا وتذكرت الحوار الذي دار بين صاحب الجنتين وصاحبه التي وُردت في سورة الكهف ، وتدور الكرة الأرضية وقد أفلت الشمس ولاح الغروب وموسم الخريف يسري في أحواله ، فإذا بكائن غير مرئي يحتل عضو من أعضاء جسده ويحتال عليه ويهدمه من الداخل و تخور قواه و يستسلم لمرضه ، و تلفظه الوظيفة الثابتة، مريض الالتهاب الكبدي غير مرغوب فيه ، باع قطعة الأرض لتحميه من السؤال ، صرف على مرضه وعلاجه وأفلس ، في نفس هذه المحن ، الزوجة صارت حاملا و أنجبت الذكر الذي يتمناه ولكنه لم يبق كثيرا ، رُدت الأمانة إلى خالقه مرة أخرى ، فتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض ، كثرت المشاكل وأصبحت كالسدود بينه وبين زوجته ، ولم يهدأ المرض، مع الوقت ازداد توحشا ، لجأ إلى كل من يظن أن لديه الحل ، سافر إلى أطباء لمسافات بعيدة، صارت حياته في سيارة الأجرة والعيادات أكثر من بيته ، ومع ذلك لم يجد أي حل.
وفي ليلة تعب وعبراته ملأت القلوب ، حملوه إلى طبيبه ، لم يتحمل أكثر من ذلك ، نظر خلفه لم يجد غير حضن فتاته الصغيرة وزوجته ، هم أن يخرج من بيته ولكن لم يقاوم، استسلم لملك الموت ، ذهب إلى ابنه الوحيد في آخر محطة من محطات الدنيا .

تنهد العمدة وتأمل ملامح زوجته فأظهرت عدم الفهم فابتسم وتناول كوب النعناع مرة أخرى فقالت زوجته :
ثروت عز الدين لديه حل مناسب للجميع.

تجمدت ملامح العمدة عند ذكرت اسم ثروت عز الدين ، وكأنه كان خارج الحسابات وظهوره أربك كل شئ ، مما دفعه وتساءل في غضب مكتوم :
وما علاقتك بهذا الوغد اللعين ؟

أشاحت بيدها وكأنها تنفي تهمة قد تلتصق بها وشرفها فبادرت وقالت:
لا يوجد أي علاقة ، لقد هاتفني عدة مرات وشرح لي بعض الأفكار للخروج من الورطة التي نحن بصددها.
العمدة :
وما هي تلك الورطة؟ بعض العمال البسطاء كانوا أحجار على رقعة الشطرنج ، يحركها الآخرون كما يحلوا لهم ونحن نحركهم كما يحلوا لنا ، مسألة وقت لا أكثر ، وكما قلت لك من لحظات ، كل فترة تحدث مناوشات من قبل الموظفين ويعودوا إلى أدراجهم ، لماذا تضخيم الأمور فوق الحد ؟ .

لانت ملامح زوجته الجامدة قليلا وقامت بصعوبة بسبب وزنها ، وأخذت الأكواب الفارغة وهرعت مسرعة لا تناسب بدانتها ولا ترهلاتها.
غمغم العمدة في ضيق :
يبدو أن الدهون استقرت في رأسها وأحاطت به داخليا وخارجيا ولم يعد هناك مساحة للفهم والاستيعاب.. النوم راحة...بل الموت راحة من كل هذا الغباء المنتشر في القصر وخارجه.

زفر العمدة في ضيق وتنبه إلى ما ذكره عمر في حديثه معه الليلة عن عائلة الفقي وبالتأكيد ثروت عز الدين في الطريق إلى الظهور على السطح جراء الأحداث الأخيرة ، وها هو يدخل بيتي دون إذني ، هناك غموض حول هذا الرجل يحوم حوله ، واستفهامات عديدة ليس لها تفسيرات ، تذكر أن عمر على موعد مع ثروت.. عز.. الدين.. رجل الأعمال الذي يذكره بقارون..والتي نهايته ستكون مثله.

(١١)

قبل العاصفة

كان الطقس يميل للبرودة بالرغم من سطوع الشمس بقوة ، تنبه العاملين بالمصنع أن هناك حركة غير طبيعية في قلب قاعة المؤتمرات بالمصنع ، حيث جلس العمدة وعمر العسكري ومأمور المركز الذي خصص موكب حراسة للعمدة بعد محاولة الاغتيال التي حدثت منذ عدة أيام .

قال عمر : أتوقع حدوث بعض الاحتجاجات في الفترة القادمة ، وقد تصل أعدادهم إلى مئات الآلاف ، ما زال حركة مجددون تتوغل داخل العاملين في خفاء مثير ، العمال يبدءون عملهم بمنشورات ويختمون يومهم بمنشورات أخرى .

سأل العمدة : وماذا أعددنا لهذه الاحتجاجات ؟

صمت عمر لبرهة من الوقت حتى يتمكن من إقناع العمدة بكلامه :
لقد رصدنا وجود بعض العناصر المدربة تدريبا جيدا على أساليب الإثارة والتحريض ، ولابد من حلول حاسمة وسريعة للأزمات التي يعاني منها العمال.
العمدة: زيادة في الرواتب مثلا ؟ حوافز ؟
ابتسم عمر في اقتضاب وقال:
حلول تقليدية ومؤقتة.

العمدة: ماذا يريدون هؤلاء بالضبط ؟ ما الذي حدث لكل هذا الهرج والمرج والتوتر والقلق ، ماذا يريدون غير حياة كريمة لكل عامل ، عمل مستمر بلا توقف ، أجازات وعلاوات وحوافز كل عام ، ماذا ينقصهم ؟

حاول عمر السيطرة على غضب العمدة وقال:
معلوماتي تشير إلى وجود عناصر دخيلة لبث الفوضى الخلاقة، عدم الرضا ، أن الاستقرار ما هو إلا جمود يعقبه وفاة للأجيال القادمة ، الشباب متحمس للتغيير وهذه طبيعته ونحن نفضل الاستقرار كي تسير الأمور وهذه طبيعتنا ، لذلك دعونا لا ندفن رؤوسنا في الرمال و نحتوي الأمر بذكاء .

تحدث مأمور المركز وقال :
بالفعل لدينا معلومات واضحة أن هناك مظاهرات داخل وخارج المصنع ، وسنتعامل معهم بالحصار أولا ثم استخدام الأساليب العادية إذا دعت الأمور لذلك.
العمدة : مثل ماذا ؟
المأمور: خراطيم المياه.. قنابل غاز..في حالة خروجها عن سلميتها..وان حدث سوف يتم القبض على مثيري الشغب بالقطع.

العمدة : ما زلت لا أصدق أن كل هذا يحدث وكأننا في كابوس غريب .
استدار العمدة ناحية عمر وسأله عن ثروت عز الدين
قال عمر بحسم : ثروت يتحكم في المصنع بشكل غير مباشر .

قفز قلب العمدة من مكانه واضطرب وسأله بخوف ظهرت علاماته على وجه : كيف ؟

عمر : ثروت يعبث بالكل ، انه كالإخطبوط له ذراع في كل مكان ، لدرجة أن إحدى أذرعه وصلت للقصر ، بالطبع سيادتكم تعلم ذلك .

غمغم العمدة في غضب وتذكر زوجته وحديثها عنه ثم أردف عمر :
لكن، لا تقلق فهو تحت أعيننا.
أدرك العمدة أن الحديث انتهى وهم بالقيام والخروج ، سار ببطء كعادته حتى وصل إلى باب القاعة ثم وقف وكأنه تذكر شيئا فاستدار وقال موجها حديثه لمأمور المركز :
ثروت عز الدين الحاكم الحقيقي في هذا التوقيت يحكم من خلف ستار.. أنه نصف إله.

ألقى جملته وغادر وأحاط بالمأمور علامات استفهام عديدة قرأها عمر ، فطلب الأخير فنجانين من القهوة السادة وشرح له كل شيء.

*****

ثروت عز الدين

ثروت لم يكن شابًا عاديًا عندما عمل في المصنع ، كان يرى نفسه أنه أكبر من عمله بورشة الخراطة ، ذكي ، لماح ، وسيم القسمات ، طويل القامة ، مات أبوه وهو صغير والذي كان أيضا يعمل بالمصنع ، لم يكمل تعليمه وآثر العمل بدلا من تضييع الوقت ، كان مهووسا بالشهرة إلى حد بعيد ، يحب أن يسمع عن نفسه من الآخرين ، نجده في الأفراح الشعبية يمسك بالميكروفون ويغني أغاني شعبية هابطة والناس ترقص في هذيان ، مثيرًا للضجة ، مزعج أحيانا في العمل ، أحب فاطمة الزهراء من أعماق قلبه ، أقصى عيوبها من وجهة نظره أنها ابنة عائلة الفقي ، بالطبع ، من يهتم بهذا العامل الفقير المطرود من زوج أمه ، والذي أحيانا

يبيت في المصنع بجوار ماكينة الخراطة أو في غرفة أحد المغتربين ، وسامته ولا ذكاءه شفعا له عندما تقدم لخطبتها ، كان يختلس من الزمن لحظات عشق عند لقائها في الجانب الغربي من الحقول بعد انتهاء مدرستها ، فاطمة الزهراء جميلة كما يقولون ابنة عز ، عيون واسعة صافية البياض ، أقصر منه قليلا ، علامات الأنوثة ظهرت في تكوير ثدييها وذراعيها الملفوفة ، عاطفتها سبب شقائها ، فضح أمرها ، وطُرد ثروت من عمله وأقعدوها من المدرسة وزوجها والدها لأقرب عريس طرق الباب ، فكر ثروت في حالته لم يجد إلا الهرب ، هرب من حنجرة زوج أمه ، وعيون فاطمة الباكية ، و ترك نفسه وروحه في القرية وتبخر .

بعد عشر سنوات عاد ثروت ليس كما ذهب ، ولأن فترة الغياب كانت كبيرة لاحقته الشائعات كما ينبغي ، ثروت عاد ثريًا ، كان لابد من التساؤلات تحوم حوله كالغربان التي تحوم حول الفريسة ، وأينما ذهب كانت المفاجآت في انتظار الجميع ، أول مفاجأة أن أهل القرية علموا أن قطعة الأرض الشاسعة التي تحولت إلى ڤيلا كبيرة وسور يحيط بها وبينهما أشجار وارفة الظلال تعد مِلك ثروت بيه ، وثان المفاجآت هو وقوفه بجانب عائلة الفقي في أزمتها المالية وضخ كم كبير من الأموال على هيئة أسهم وشَراكة بينهما، ، كل هذه الأمور كانت تحدث في الخفاء وبدون علم أحد حتى ظهرت ثالث المفاجآت وهي من أظهرته للعالم أجمع هو زواجه من فاطمة الزهراء بعد وفاة زوجها الأول في حادث أليم، ثروت لم يكتفي بهذا فقط، كلما وجد أرضا اشتراها وبنا عمارة من ست طوابق ، وكأنه يريد أن يرى الناس من أعلى وهم سائرون تحت منه.

لا أحد يعلم سر ثراء ثروت ، بعضهم قالوا انه وجد تماثيل وعرائس فرعونية مدفونة في سرداب تحت أرض المصنع وهرب بهم، والآخر يقول إنه تزوج من ثرية في الإسكندرية بعد أن أعجبتها ذكائه ووسامته وكلامه الحلو وماتت وورث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وفي الأخير لا أحد سر ثروته ، تحولت إلى أسهم في المصنع وشراكات مع عائلة الفقي ، وفلل وعمارات وصار له شأن آخر.

لم يقف طموح ثروت عز الدين عند هذا الحد ، فقد تزوج بإحدى سيدات عائلة الغول صاحبة الأراضي الزراعية وأرض المصنع ، وتضاعف ثروته ونفوذه وأصبح له كلمه بين الأثرياء ورأي وسط أصحاب العقارات ولم يتبق إلا المصنع نفسه ، طموحه مازال يكبر ويتوغل ويتشعب ووصل به الفكر إلى الاستيلاء على المصنع ولكن بشكل قانوني ورسمي أو غير ذلك.

تغير ثروت كثيرا وصار له وجه خفي ووجه مُعلن ، وجه يفاوض ووجه يتآمر ، وجه يخطط ويتغلغل في المجتمع ووجه يسعى إلى طمأنة العمدة، مع مراقبة تحركاته الأخيرة ، علم عمر أنه على علاقة بالوافد الجديد عبد الغني توفيق ، والمهندس أسامة شاهين وبدأت صفحة جديدة في التعامل مع المتغيرات الجديدة.

****

أنهى عمر العسكري سرده عن ثروت عز الدين ، والتي استوعبها مأمور المركز جيدا ، وما هي لحظات حتى انقلب النهار ليلا ، والهدوء إلى فوضى وقامت القيامة في المصنع.

في الوقت الذي كان عمر يحكي فيه لمأمور المركز عن قصة حياة المليونير ثروت عز الدين ، وبعد خروج العمدة من قاعة المؤتمرات ، تجمع العمال حوله بشكل غريب وخرجوا من مصانعهم كخروج الجراد من الأجداث ، ظن العمدة أنه نوع من الترحيب ووقف بينهم وأخذ يرد على أسئلتهم و طمأنهم أن كل شئ على ما يرام ، وأن الأزمة الحالية أزمة مؤقتة وأنها ليست جديدة ، واتفق مع مدير المصنع ورؤساء الأقسام بحل مشاكلهم كلها ، أنصت السمع لما يقولونه ووجد أنهم يريدون تغيير الإدارة كليا ، وأن الإدارة الحالية ليست لديها إبداع في أي شيء، كانت ثورة الشباب طاغية تلك المرة ، لم يستوعب العمدة الكثير مما قالوه بسبب اختلاط الغضب بالكلام الحانق ، وقف متسمرا في مكانه وكأن الزمن توقف عند مشاهد وصور كأنها التقطت بكاميرا فوتوغرافية ، صورة لعمال يرفعون أيديهم عاليا و علامات الحنق والغضب ظاهرة على وجوههم السمراء والشرر يقفز كالقصر من عيونهم وأفواههم مفتوحة على كلمة واحدة ، صورة أخرى لشاب طويل القامة ، يضع فوق أرنبة أنفه نظارة طبية ، ناعم الشعر ، طليق اللحية مما أعطي لوسامته جاذبية خاصة ، كان يقف في مقدمة مجموعة من العمال ، لم يعرف أنه المهندس أسامة شاهين ، هو أول من قال كلمة ما ووثقت في لحظة التقاطها ، وصور أخرى تجمعت لتصبح صورة كبرى لثورة عمالية يطالبون بثورة صناعية وإصلاحات اقتصادية.
أفاق العمدة من شروده علي كلمة غاضبة خرجت من أعماقهم و حناجرهم..
كانت الكلمة : (ارحل)

لم يصدق العمدة ما سمع وبالفعل تحرك من مكانه وسط الحراسة المشددة ، ونشب العراك عندما سمعوا جميعا عيار ناري طائش كانت نتيجته مقتل أحد الحرس الخاص بالعمدة ، انقلبت المظاهرة السلمية إلى ساحة حرب حيث قفز العمدة بأقصى سرعته إلى خارج المصنع ونجا مرة ثانية من محاولة اغتياله ، ترك المصنع وهو في حالة غليان تكاد تنسف الأخضر واليابس.

سمع عمر والمأمور تلك الأصوات الغاضبة التي تحيط به من كل مكان ، اندلعت التظاهرات في العديد من أنحاء المصنع بعد هروب العمدة ، الأعداد وصلت إلى ثلاثة آلاف متظاهر داخل المصنع فقط ، اخترقت كلمة (ارحل.. ارحل) أذنيه

ولم يصدق في البداية حتى ترامى إلى مسامعه أن هناك بيان من المتظاهرين ، سمع المأمور بقرار المبيت في المصنع مما أصدر تعليماته باستخدام وسائل فض التجمهر بزعم خروج المتظاهرين عن إطار الشرعية والقانونية وان المصنع ليس ساحة اعتراضات ولا تظاهرات ، بدأت قوات الأمن في رش المياه واستخدام العصي والقنابل المسيلة للدموع وإطلاق أعيرة خرطوش مطاطية على الأرجل ، ثم وجد شابا يافعا في مقدمة المتظاهرين في عينيه الكثير من التمرد والغضب والحنق فأمر عساكره باعتقاله فورا وعندما سأل عمر عن إذا كان يعرفه أم لا.. تنهد عمر في أسي وأجاب : نعم.. إنه المهندس أسامة شاهين.

*****

قفزت دينا من فوق سريرها بعد قرأت أحدث رسالة أرسلها حسام ، كان الخوف يحيطها من كل جانب ، ارتجاف قلبها جعلت خلاياها تستعد لاستقبال أكبر قدر من الأدرينالين ، نظرات زائغة تبحث عن شيء في جنون ، قامت من مكانها وحاولت السير لكنها وقعت على الأرض من فرط ارتعاد مفاصلها ، استجمعت قواها ودخلت المطبخ وأعدت كوبا من النسكافيه البلاك ، أخذته شاردة وفكرت في مراسلة نهى ، وضعت النيسكافيه على مكتبها وكتبت..

حبيبتي نهى ،،

يبدو أن حسام يمر بأزمة نفسية وعصبية كبيرة فقد نشر على صفحته قصة قصيرة تعكس عن ألم عظيم بداخله تحت عنوان "سفينة بلا مرفأ "..أنقلها لكِ ؛ كي تشاركيني حيرتي :

(رماد أسود متراكم فوق تراب نتن بجوار حائط باهت اللون ، هذا ما تبقى من روايتي الجديدة ، أحرقتها بعد أن سطرت بداخلها خمس فصول كاملة ، أغضبت البطل بعد ما كانت هادئ وديع وحولته إلى ثائر متمرد ، وألقيت محبتي عليه وعلى وسامته لأنه يمثلني تماما و اعتبرتها بمثابة رغبة مكنونة داخلي أن أكون مثله حتى تتهافت عليّ الحسناوات ، قذفت بسُمعة أخرى كانت مختبئة داخل عقلي الباطن قد أحرقت بيت العائلة يومًا ما ، ووضعت كل القبح في بانوراما

شاملة لدراما متحركة تقرأها مسحورا من السرد والإبداع ، دراما أحركها كما يحلو لهوى النفس ، جميل جدا أن أكشف عن قذارة أسناني من بقايا النيكوتين الملتصق عليها وأضحك بهستيريا دليلا واضحا على أن عقلي لديه برج قد تهاوى ودمر باقي الأبراج مثل التساقط المنتظم لقطع الدومينو ، شعر طويل بلا تهذيب ، لحية مُهمَلة بلا تشذيب ، كانت تلك صفاتي الظاهرية وأنا أحرق تلك الأوراق المتساقطة من داخل عقلي ، لقد فعلتها من قبل ، نعم ليست تلك هي المرة الأولى ، عند بداية التزامي وتمسكي الشديد بتعاليم الدين ، أمسكت بكومة من قصاقيص ورقيه كنت أحتفظ بها ، كانت عبارة عن مقالات وأقوال وحِكم نقلتها من قراءات سابقة ، ظننت أنها مكتوبة بفعل قوى شيطانية رهيبة ،ولأن النار لا يُعذب إلا بالنار ؛ كنت ابتسم ابتسامة هادئة حالمة وأنا أُعذب الماضي الذي يخيفني ويطارد التزامي وهيبتي ووقاري الجديد ، ولكن السنين فعلت فعلتها معي وأصبحت مرتدًا ، وعدت مرة أخرى لأقلامي وأوراقي وقراءاتي ، وظهر حاجز شفاف ، غير مرئي يحول بيني وبين الاندماج في الحياة..حاجز من صُنع الآخرين الذين يضمرون لي الكراهية والشر لمجرد أنى إنسان مختلف ، فقررت أن اصطحبهم جميعا في رحلة ورقية وأفعل بهم ما أشاء ، كنت الهث وراءهم بين السطور والجُمل والعبارات ، دقات قلبي كانت تتسارع وأنا أعدو من بينهم ، أحاول الفوز في سباق وهمي اخترعته من إحساسي بالنقص والغرابة ، وبعد أن فزت عليهم جميعا جاء وقت محاكم التفتيش وحكمت عليهم بأن أسومهم سوء العذاب المهين .

انتظرت حتى حمل الهواء بقايا الرماد الأسود بعيدا ثم أشعلت لفافة تبغ وانتشيت من رائحة الدخان وأثرها على أصابعي ، وضعت يدي اليسرى في جيب بنطالي وسرت في منتصف الطريق ، غير مبالي بصيحات السائقين ولا ذهول المارّة ، تمنيت أن يظهر من ورائي سائق مجنون يقوم بإزاحة عقلي من فوق الطريق الحائر .

عدت إلى غرفتي ، غرفتي التي جمعت بين الأحياء والأموات ، الصدق والأكاذيب ، الحقائق والفانتازيا ، وفرقت بيني وبين نفسي ، بين عقلي وقلبي ، تمنيت أن أعود جنينًا إلى رحم أمي ، وأبدأ من جديد ، او تنتهي روحي وتنتقل إلى جسد آخر في زمكان).

هل رأيتِ؟ لقد اتصلت عليه لم يرد.. أرسلت رسائل عبر الواتس.. رآها ولم يجب ومنذ لحظات أرسل لي رسالة موجزة يخبرني بالملف الأخير من الرواية .. وطلب منّي التفكير بعمق بعد القراءة.. سوف اسهر للفجر يا نهى. لأفهم ماذا يحدث خاصة بعد رسالته الأخيرة والتي تحمل جملة عجيبة :

(إذا أشرقت الشمس وعلمتي سر تركيبتي وفهمتِ شخصيتي ومازال قلبك نابضا بحبك لي. فأنا في انتظارك في العاشرة صباحا لمقابلتك عند Bird Cafe لتناول قهوتنا الفرنسية).

أسامة شاهين

(الشمس.. عشت في الظلام كل سنوات عمري.. أرجو أن تشرقي فجأة في حياتي لتبددي الظلام من حولي.. تبعثي الدفء في أوراقي الجافة الميتة..موعدنا الأفق. أي مكان وزمان تختارينه)

رجاء عليش

(١)

(هنا في السجن إما أن تقتل الوقت أو الوقت يقتلك ، نحن نحكي كل شيء بالتفاصيل لان ليس لدينا إلا الوقت السرمدي.)

أحد المساجين

قررت النيابة الحبس خمسة عشر يوما حبسًا احتياطيًا على ذمة التحقيق ، تم اعتقالي اليوم بعد أحداث المصنع ، بعد اتهامي بمحاولة اغتيال العمدة وإثارة الشغب وأنني المحرك الرئيسي للمظاهرات التي تكررت في الآونة الأخيرة ، هيهات أن يجدوا دليلاً واحدًا ، السجن أحب إلىّ من الخارج حاليا ، أعتبرها فترة هدوء واسترخاء وإعادة ترتيب ذكريات الطفولة وطي صفحات الماضي والحاضر من أجل فتح صفحات جديدة للمستقبل ، لا يهم أن أقع تحت براثن زبانية جهنم لفترة من الوقت ، فرصة لن تتكرر لرؤية ما لا يراه غيري ، هكذا هي الحياة ، ناس تعيش في بروج مشيدة وناس تستظل بأوراق الشجر وآخرين في غياهب السجون ، والسجن أنواع وأشكال ،هناك سجن وهمي نعيش في داخله بأسلوب حياتنا وطريقة أفكارنا وهذا مكثت فيه سنوات من العمر ، وهناك سجن واقعي كالذي أمكث فيه الآن، حيطان كالحة ، سوداء اللون ، تم نقش آلاف النقوشات وكأن السجين اعتبر نفسه من سلالة فرعون أراد إثبات وجوده فترك آثارا للذي يليه ، نافذة صغيرة مساحتها شبرين في شبرين ، تقع على الجانب الأيسر من الحائط ، قضبان حديدية قصيرة ، وجودها مثل عدمها ، لن تفرق كثيرا غير إحساسك انك مسجون بالفعل تماما مثل القضبان التي أوهمنا أنفسنا إنها هي الفاصل بين رؤية الحق والباطل ، مجموعة من المساجين المختلفين في كل شيء ، كل واحد منهم أعتبره قصة وحكاية قد تكون كقبس نور في هذا الظلام الدامس ، لم أتعود عليهم بعد ، ولم يألفوني فورا ، فالوقت مازال مبكرا لتلك الأحاديث الجانبية ، الغريب هنا انه يوجد دورة مياه ، ولكنها قذرة لأقصى حد ، رائحة كريهة تنبعث منها تكاد تزكم الأنوف كلما اقتربت منها ، توجد ستارة على بابها بدلا من الباب الخشبي ، وليست ستارة بالمعنى المفهوم إنما هي بطانية رمادية اللون قديمة متهالكة مثبته بمسامير غليظة نوعا ما ، يبدو أنها اختراع احدهم للحد من تلك الغازات السامة المنبعثة من هذا المعمل النووي ، لون حائط دورة المياه مختلفة عن لون حائط السجن فلونها بني داكن ولا يوجد بها فتحة تهوية ، وهذا هو تفسير انبعاث تلك الإشعاعات النووية للداخل وليس للخارج ، باب السجن حديدي له مزلاج مزعج للأذن عند الفتح والغلق ، وقد يكون مصدر فرح للبعض عند الزيارات أو الفسح .

سأنام على الأرض ، لا بأس ، اخشوشنوا ، ليست جديدة في المطلق ، نمت كثيرا على الأرض ، باردة وساخنة ، بغطاء وبدون غطاء ، لن أبقى هكذا عموما ، اليوم في السجن وقته أطول من اليوم العادي لأننا بلا حركة ، أرى من حولي جثثا من فرط الاستسلام والركود ، أنفاس ساخنة تلاحقني من كل الجوانب ، خمسة عشر يوما سيمرون بالتأكيد ، بالقطع سألوني عن سر قدومي، فقلت بسخرية : سياسة.

قال أحدهم وهو ينفث دخانه في السماء : يبدو كذلك.. وجهك ليس وجه إجرام .

شكرته على ذكائه وفطنته ، تأملت الوجوه من حولي وجدت بقايا بشر يتشبثون بالحياة أملا أن تتغير الدنيا لاحقا.

عرفني أحدهم وقال أنه سمع بي وعندما سألته عن الذي سمعته أجاب : أنت المهندس أسامة شاهين ، مهندس كبير في مصنع (فاكتوري) ، ومؤسس حركة مجددون و..

قاطعته في حزم : لا.. لست مؤسس لحركة مجددون ولا عضو فيها ولا أعرفهم ولا أحد يعرفهم من الأساس ، أنا مهندس كبير رغم عدم تجاوزي الثلاثين من العمر وهذا لعملي بكفاءة وخبرتي من خبرات آخرين ، كما أن راتبي كبير ولست بحاجة لهذه الثورة ، وعلاقتي جيدة جدا بمدير المصنع ورؤساء الأقسام .

هز رأسه دليل على فهم كلامي ثم صمت ، هدأت قليلا و استعدت انتظام أنفاسي ثم لومت نفسي على هذا الانفعال الغير مبرر و كأني أدافع عن نفسي وهذا ما لم أفعله أمام وكيل النيابة ، أشفقت على نفسي في أول يوم سجن أن أنفعل فيه بهذا الشكل ، لم أجد من يتكلم معي في هذا اليوم ، صرت وحيدا كما كنت في السابق ، الوحدة هي بيئة خصبة إما للعبادة أو لوسوسة النفس أو لوسوسة الشيطان ، ولكن طالما السجن وحدة إجبارية تحت عيون المراقبة وقوانين محكمة فأسلم حل هي ترك النفس ترى على تلك الحيطان الكئيبة مشاهد وذكريات ماضية، لأفهم ما الذي أوصلني إلى هنا ؟ ، أغمضت عيني في هدوء وتذكرت.

****

-أغرب عن وجهي.

أمر إجباري صدر من أمي لهذا الطفل المشرد ، طفل يحمل في يده شيء يشحذ به ، كان في مثل طولي ، لا اذكر تحديدا ماذا يرتدي ، ولكنني رأيت ملامحه

وهي تضحك رغما عنه ويتركنا، غالب الظن أنني كنت في الصف الثالث الابتدائي ، كنت أسير مع أمي عائدين من مكان ما ، أمي ذات الملامح الجادة ، الحادة الطباع ، وكأن يجب أن يُدفع لها أموال نظير أن تبتسم ، لم أر أبي ، قالوا لي سافر ومات في الغربة ، فيما بعد حاولت البحث عن صورة زفاف او صورة بمفرده، لم أجد، كأنه تزوج وتبخر في عالم موازي ولا يوجد له أي أثر تركه هنا أو هناك ، شعرت باليتم منذ أن كنت صغيرًا ، ليس لي أب كباقي الأطفال الذين أراهم متعلقين في أيدي آباءهم ، لذلك نشأت وقلبي رقيق، حساس ، لذلك رق قلبي لهذا الطفل المشرد، لماذا ابتسم ؟ هل خجلا أم مغلوبا على أمره ، أفلت راحتي من يد أمي كنوع من التمرد أو التضامن مع هذا الطفل ، لماذا صرخت في وجهه ؟ ماذا فعل كي يُنبذ بهذا الشكل ، كنت أحب أن أعبث بدبلة أمي التي في كانت تزين أصبعها في اليد اليسرى ، وعندما زادت في الوزن وتركت الدبلة أثرها صرت أعبث بالأثر والدبلة معا ، ولكن بعد هذا الموقف حرمتها من تلك المتعة ، عدنا إلى بيتنا الفقير من كل شئ، رفضت العشاء وبدلت ملابسي وتدثرت تحت الغطاء وبكيت ، بكيت بحرقة لا مثيل لها ، دموعي كانت تسيل ساخنة على خدودي أحيانا وحارقة في حلقي أحيانا أخرى، وصورة ذلك الولد لا تفارق خيالي ، كلما رأيت ابتسامته زاد ألمي وكسر قلبي ، كلما هدأت النار بداخلي أتذكر جملة أمي فتعود عبراتي تحرقني مرة ثانية ، بقيت على هذا الوضع حتى غفوت في نوم عميق ، زار هذا الطفل أحلامي الذي أتى إلىّ يركض واحتضنني بقوة وكأنه يقول لي : شكرا لك على تضامنك معي .

استيقظت مبكرًا كالعادة ، ولكني كنت مشرقا أكثر من أي يوم مما لفت انتباه أمي ، خرجت من بيتنا المتواضع باحثا عن هذا الطفل لعل أجده في طريقي ، وأعطيه أحد الساندويتشات التي معي داخل حقيبتي ، ولكنني لم أجده ،تأسفت لحالي ، المشكلة الكبرى في ذلك الوقت أنني نسيت ملامحه التي رأيتها في الظلام ، أعمدة الإنارة لا تجعلنا نرى بعضنا البعض إلا أشباحا تمشي على الأرض، لذلك لو رأيته مرة ثانية لن أعرفه ، سكن قلبي داخل فؤادي ومضيت حياتي على نفس وتيرتها.

****

بعد مغرب هذا اليوم جاء الزى الأبيض ، الملابس المميزة لهؤلاء المساجين احتياطيا ، البدلة البيضاء وهى المعروفة بزى الحبس الاحتياطي وهى أول ما يرتدي المتهم فور القبض عليه وإيداعه السجن، حتى ولو كان صادر ضده أحكام قضائية غيابية - وفق ما أكدته مصادر قضائية- لائحة السجون تحدد الألوان التي يرتديها السجين وفقًا للأحكام الصادرة حضوريا، ويبدو من اللون الأبيض المعروف عنه بالنقاء والطهارة أنه اختير خصيصًا للمحبوسين احتياطيًا على ذمة قضية، نظرًا لأنهم لم يدانوا بشيء، ولم يدنس ثوبهم بخطيئة ثابتة أقرها القضاء.

ارتديت البدلة البيضاء وجلست بين نزلاء العنبر وتمنيت لو عادت طفولتي بيضاء مرة أخرى ، فلم أدنس طفولتي إلا بشقاوة عابرة في شهر رمضان ، أن تسمع دوي انفجار أثناء أذان المغرب في شهر رمضان فهذا ليس مدفع الإفطار قطعا، إنما قنبلة يدوية تحمل لاصق "صُنع في البيت " والتركيب عبارة تجميع محتويات عدد من الـ"بُمب" ثم تُفرغ محتوياتها في زجاجة دواء فارغة ثم يتم إلقاء تلك القنبلة في الشارع بعيدا عن المحلات والمارة.
ماذا فعلت وأنا في عُمر العاشرة؟
كان أحد أحلامي هو تفجير قنبلة يدوية في رمضان ، وكأن " خلية إرهابية نائمة " في داخلي أو عقلي الباطن أو أن هناك جين متنحي ولديه الاستعداد للظهور على مسرح الجريمة ولكن يحتاج إلى من يدله على طريق الشر ، كان لابد من خطة محكمة وتكتيكات ذكية وأموال ومكان لإخفاء أدوات الجريمة.

وأتى رمضان وحان الوقت المناسب لتحقيق الحلم وتنفيذ الرغبة المكبوتة ، جمعت القروش التي هي مصروفي واشتريت عدد من " البُمب" وخبأتها في دولاب قديم بشرفة المنزل ، وأحضرت زجاجة "ميكروكروم " فارغة وألقيت بداخلها البارود البرتقالي اللون والزلط الصغير الحجم حتى امتلأت تماما، أغلقت الزجاجة بإحكام واحتفظت بها في نفس المكان ، ولكن حدث خطأ وسهو ونسيان تسببوا في مشكلة كبيرة بعد ذلك.
قبل المغرب بساعة تقريبا ذهبت إلى مكان إخفاء سلاحي اليدوي واطمئن قلبي لوجودها، بريق عيناي يشع في كل اتجاهات حياتي ، بعد قليل سوف أحقق حلمي وألقى بالقنبلة في الشارع وسوف يرى ويسمع كل من في الشارع ويعلم بهذا

الحدث العظيم أن "أنا " هو من فعلها ، الكارثة أني نسيت ووضعتها في جيب "الترنج " ، لماذا الدقائق تمر بطيئة اليوم ؟ تلك هي مشاعري حينها ، هممت بالدخول إلى البيت ، كنت اقفز فرحًا بتلك المغامرة وهنا حدثت الكارثة، قفزت القنبلة من جيبي و انفجرت بجوار قدمي اليمنى ، وشظايا القنبلة الزجاجية تناثرت بعضها على بلاط الشرفة وبعضها استقر داخل قدمي ونزفت الدماء من جاني قدمي اليمنى ، لم أشعر بوقوعي على الأرض ، ضباب رمادي كثيف أمام عيني ، رائحة البارود في أنفي ، أمي تصرخ من الداخل "ما الذي يحدث ؟" ، تنقبض الشرايين التي توصل الدماء إلى عيني فأحس بزغللة فظيعة ، بأصابع مرتعشة أزيح شظية زجاجية دخلت جانب قدمي ، ارتبكت ولم أدري ماذا أنقذ أولا ؟ هل أوقف النزيف أم ألملم بقايا الشظايا ؟
قمت مضطربا من مكاني و فرائصي ترتعد ليس من الخوف فقط بل من جراء دوي القنبلة في أذني ، قطرات الدماء على بلاط الشرفة وعلى ارض الغرفة ثم الصالة وأخيرا في الحمام ، غسلت قدمي جيدا ثم لصقت مكان النزيف ومن حُسن طالعي أن الجرح لم يكن غائرا أو عميقا م نظفت آثار الدماء وما تبقى من القنبلة والأغرب من كل ذلك.. هي أمي.. التي لم تسأل على أي شيء ولا عن صوت الانفجار ولا الدماء!!
كانت تلك هي الحادثة الوحيدة التي حدثت لي في شهر رمضان وأنا طفل صغير والتي من بعدها أعلنت التوبة تماما وأصبحت مواطنا صالحا بلا قنابل ولا تفجيرات ولا ترويع للآمنين.

****

أتى الليل بسكونه المعتاد وهدأت الحوارات الجانبية وصار الهمس يسري بين كل اثنين متجاورين وكأنهما حبيبان ، الجميع يستعد للنوم ، أعطاني أحدهم مرتبة سرير وغطاء باعتباري ضيف وأن هذه أول ليلة أغادر فيها سريري الحقيقي وغطائي الدافئ ، تأملت حالهما وتساءلت : هل أستطيع النوم على تلك الخرقة البالية والتي تُعتبر مرتبة سرير مسروقة الدسم، كان بها من الروائح والأتربة ما يكفي لإلقائها في أقرب صندوق قمامة ، ولكنها تمثل ثروة بالنسبة للذي ليس لديه أي خيار ، شكرته بالقطع و أزحت ما تُسمى بالمرتبة جانبا ، ثم تدثرت بالغطاء الأسود اللون وتحملت رائحته الكريهة على مضض ، مازلت أوهم نفسي أنها تجربة وسوف تمر كما مرت سنوات عمري .

مرت بضع دقائق وسمعت سيمفونيات نشاز من عدة جهات ، إيقاعات صاخبة تثير الأعصاب ، من الواضح أن أول ليلة لن تمر بسهولة ، الهرب إلى أحلام اليقظة ضروري لتأخذ بيدي إلى أحلام النوم.

******

أنا آخر من استيقظ في العنبر ، الساعة البيولوجية سوف تتعود لاحقًا وتتآلف مع البيئة الجديدة التي أنا بصددها ، خرجنا من العنبر بفرحة مثل فرحة العيد ، لم أتخيل أبدًا أن يأتي عليّ يوم خروجي فيه من مساحة الضيق إلى مساحة أكثر اتساعا بمثابة يوم عيد ، وأنني يوما كنت على عراك مع أمي لمنع الذهاب لرحلة عندما كنت بالصف الثاني الإعدادي ، حيث أعلنت المدرسة عن رحلة لزيارة الأهرامات وقلعة محمد علي والملاهي ، كنت في أشد حالات سعادتي عندما اشتركت في تلك الرحلة ، مكثت أيامًا أحلم بشكل وهيئة الأهرامات وهل أبو الهول له رأس إنسان وجسد أسد ؟ وما هي الألعاب في الملاهي ؟ وكيف شكل المتحف الذي لم نعرف له صور في كتب المدرسة ؟ ، حتى أتت الرياح بما لا تشتهي السفن ،وقامت أمي بزيارة غريبة ومفاجئة للمدرسة ، وسألت على مستوى تحصيلي الدراسي ، كنت قد حصلت على الشهادة الابتدائية بمجموع كبير وحصلت على المركز الثاني على مستوى المدرسة ، فطنت أمي أنني ذكي ونبيه وسريع التعلم ، وحاولت الحفاظ على مستواي التعليمي ، وبالفعل كنت مُبشرا بعد نتيجة الصف الأول الإعدادي ، إلا أنني أهملت قليلا ولاحظت ميلي للعب دون المذاكرة وجاءت في ذلك اليوم المشئوم ، وسألت بعض معلمي الصف وفوجئت بشكاوى المعلمين، أسامة تغير ، مستواه كان أفضل العام الماضي ،انفجر الغضب في العروق وأخذت قرارا مصيريا ، لم أدري كيف أصبح المدرسة فارغة فجأة بلا طلاب ولا معلمين ؟ نظرات مخيفة من أمي كأنها إشعاعات منبثقة من عمق عينيه الحادتين ..تيبست مفاصلي وارتعد كامل جسدي عندما رفعت سبابتها اليسرى مصوبا اتجاهها نحوي..شعرت بهرمون الأدرينالين ينفجر من داخلي كأنها قذائف تُدمر كل خليه بجسمي..اهتز كياني وارتجف قلبي

والدماء تجمدت في العروق عندما سمعت بأذني صوت آلي متضخم ومُجسم صدر من حنجرتها وهي تقول : لن تذهب إلى الرحلة ، و ستمكث في البيت للمذاكرة.

تحولت أحلامي الرومانسية إلى كوابيس بشعة ، رأيت مشاهد الرحلة من خيالي ، الأولاد يلعبون ويضحكون مرتدين ملابس مختلفة عن الزى المدرسي الموحد ، يصفقون و يغنون طوال الرحلة ، يشاهدون ضخامة الأهرامات وأبو الهول ويلتقطون الصور المختلفة ، يغازلون السائحات الفاتنات، يلعبون ويضحكون بصوت عال في الملاهي ، صور مزعجة بالنسبة لي ، مشاهد غير مبهجة تغزو دموع عيوني ، في تلك الليلة قلبي تمنى الموت لأمي ، الهلاك للباص ، توهان الأولاد في الرحلة ، لأول مرة في حياتي القصيرة الشيطان يعبث بي ، واكتشفت أن لدي موهبة تُعد غريبة وهي تخيل الأحداث عن بُعد ، تجمدت الدموع في عيوني وضغطت على ضروسي حتى كادت أن تتحطم ، كان حادثة ترسبت في أعماقي ووضع الحزن علامة قوية في قلبي بعد أن شبع بحزن فقد الأب وكأنه لم يكن موجودًا بالأساس في هذا العالم وصرت أنا المسيح عيسى بن مريم وعايشت أسابيع الآلام لكن بمنهج الدنيا.

*****

حان الآن موعد الغداء ، كل من أَلِفَ حياة السجن تعود على البروتوكول الداخلي للسجن ، أما المحبوس احتياطيا مثلي وفي أعماقي أنها تجربة لابد من خوضها خففت كثيرا لمشاهد الأطعمة التي توضع لنا ، ليست أطعمة بالمعنى المفهوم ، يجوز وصفها بأنها أشياء تؤكل مصحوبة أكواب من المياه حتى تشعر بالشبع وكفى، لا تعليق ولا إبداء رأي ، لست في مطعم حتى أفرض رأيي من نوعية (الزبون دائما على حق) ، ولست في بيت أمي مثلما نهرتها يوما على طبق فول بالرغم من أنه لذيذ الطعم إلا أنه لا يصلح لوجبة الغداء ، أين أمي ؟ وأين طعامها ؟ يكفي الحب الذي أجده في عينيها وهي تطبخ ما أريد.

عدنا إلى عنبرنا كأسرى الحرب، دلفنا إلى الحيطان السوداء والشباك الذي يُعد مقياس لمعرفة الوقت ، ظلام الليل ونور الصباح ، لا شيء يتغير، دخان كثيف يملأ أجواء السجن ، أحاديث جانبية تتحول إلى قاعة اجتماعات ونقاش ثم تتبدل

إلى ساحة حرب وتحدث مبارزات بين كل الأطراف والكل فائز والكل خاسر ، همس في أذني من كان بجواري وقال : عندما يدخل أحدهم السجن لابد وأن تجد في قمة شنطته مصحف وسجادة صلاة ، وقد ترى في هذا الركن المصحف وسجاجيد الصلاة ، ولكننا لم نر معك مثل هذه الأشياء، لماذا ؟
تعجبت أشد العجب من هذه الملاحظة، ألهذه الدرجة المساجين يفتشون كل وافد جديد بعيونهم ؟ أم أنها أسلوب حياة كل سجين ؟
تمر الثواني مثل الساعات والساعات مثل الأيام ، تعرفت في ذلك الوقت على (صفا) ، شاب أبيض البشرة ، وسيم القسمات، هادئ، متوسط الطول ، عيون واسعة وحزينة ، من يراه يقول انه ابن عز وليس ابن إهانة السجون، تقربت منه وحكى قصة زجه في السجن ، قصة مؤلمة ، ولم يتبق من فترة العقوبة إلا أسابيع قليلة ، أراد معرفة حكايتي بالتفاصيل ، تعجبت من كلمة (التفاصيل) ، ابتسم من تعجبي وقال :
هنا في السجن إما أن تقتل الوقت أو الوقت يقتلك ، نحن نحكي كل شيء بالتفاصيل لان ليس لدينا إلا الوقت السرمدي.

(٢)

(طوال فترة وقوفه في الشارع المظلم ظل بصره مشدودًا إلى النافذة المضيئة و ...)

الوحدة ..لم أكن منطويًا ومعزولاً عن العالم الخارجي بخاطري ، وضعت أمي قاعدة في بيتنا وهي أن الوحدة خير من جليس السوء ، وتساءلت لماذا لا أجالس الصالحين ؟، ظهرت نتيجة الإعدادية وتفوقت كالعادة ، ولم يأتي إلى بيتنا من يهنئني بالنجاح والتفوق إلا الجيران ، هؤلاء الطيبون الذين لم نر منهم إلا كل خير ، همست جارتنا في أذن أمي بضرورة العمل في مصنع (فاكتوري) ؛ تأمينًا لمستقبلي على حد علمها ، تاهت أمي بين دموعي ودموعها ، لماذا أعمل في المصنع مثل الفاشلين في الدراسة ؟ ، لم تجد مفر إلا من التجربة ، في صيف حار وجاف ذهبت إلى العمل بالمصنع ، الأغرب أنني دخلت بالواسطة !، عالم آخر غير عالم القراءة الذي صببت كل همي فيه ، الوحدة جعلتني استعير الكتب والروايات وانكب عليها بكل جوارحي ، شجعني جاري (عم سعيد) ، فلديه مكتبة أراها ضخمة بالنسبة إلى حجمي ، كان يعطيني الروايات التي تناسب عمري وكتب فكرية متنوعة، أحببت الانطواء والانعزال عن المحيط الخارجي بسبب تلك الجزيرة الثقافية ، وفكرت أن أكتب وكتبت بالفعل وكنت فور انتهائي مما اكتب أمزق الورق واخفي القطع منها في مناطق مختلفة ، بعضها تُلقى في الشارع ، وبعضها يوارى في التراب والقطع الأخيرة مصيرها مع بقايا الأطعمة في سلة المهملات ، كنت أخاف أن يطلع أحد على ما أسطر، وفي اليوم التي

طلبت فيه أمي أن استعد للمصنع كنت على موعد مع دار الثقافة ، حيث تشجعت لأقرأ عليهم قصة قصيرة من تأليفي.

قادني القدر إلى ذلك المبنى العجوز في عُمر تشييده ، كان مختفيا وراء المساكن القديمة كأنه يخجل من المباني الأخرى ، ابتلعني المبنى المتهالك واستقبلني رائحة العطن الداخلي ، من الوهلة الأولي تصورت أن هذا المبنى ما هو إلا (آثار) وذكريات الماضي ، كتب قديمة ومجلات باهتة الألوان ، حقا إنها آثار ثقافية ، لا يعلم هل أضحك أم أبكي ؟ غابت الشمس ولم يظهر القمر ، الغريب أن المكان خالي من الحياة الحديثة ومن البشر ، هل وصلت مبكرا ؟ جلست على الكرسي الخشبي منتظر الحضور ..علمت أن هذا اليوم هو التجمع الثقافي لرواد الدار ، الإضاءة الباهتة أكسبتني اكتئاب زمني مؤقت وكادت أن تخرج روحي هائمة في عالم آخر ، وأخيرًا ظهر شبح عند باب الدار ،شبح من الإنس يتحدث بصوت عالٍ متحمسا لمشكلة ما ، ما لبث هذا الشبح أن تحول إلى آدمي يجيد فن الترحيب لهذا العضو الجديد الذي هو أنا ، خلال عشرون دقيقة حضر باقي الأعضاء حاملي شعلة الثقافة وراية التنوير ، وبدأ اللقاء الأول من نوعه بالنسبة له ..ماذا وجدت ؟ لا شئ مميز ، عالم مستقل عن العالم الخارجي ،صراع على وجهات النظر ، دقات فوق الرؤوس ، لا شئ مفيد في هذه الجولة الأولي ، توالت الجولات والتف الجميع حول طاولة مستطيلة وكأنهم يأكلون وجبة العشاء , الكل يجلس في مقابلة الآخر وعلى رأس الطاولة يجلس مدير الندوة أو المسئول عن إدارة هذه الأمسية الأدبية ، تشجعت وقرأت أحدث قصتي القصيرة ، كانت تحكي عن قصة حب رومانسية ، وأثناء القراءة استوقفني أحد الحضور مستنكرًا كلمة مقروءة وهي (التلفاز) وقال بكل حماس تقصد (التلفزيون)، توقفت عن هذا الفاصل الغير جاد ، واستدار قائد الندوة إليه قائلا له : إن التلفزيون كلمة فرنسية الأصل والصحيح المعرب منها هي التلفاز ..ثم وجه الكلام لي قائلا : أكمل

أكملت بعد أن رمقته بنظرة من عيني كأنها سياط نزلت على لسانه وقطعه ، بعد الانتهاء من قراءة القصة القصيرة كانت السخرية من نصيبي ، والتهمة حاضرة

وهي أنها قصة ساذجة مثل الأغنية الشبابية الحديثة ، ولكن ما يثقلها ثقل خفيف هو عنصر المفاجأة.

ابتلعت لساني ودمرت حواسي ولم أعد موجودا بينهم ، تمر الدقائق مملة وبطيئة كالشهيق والزفير ، سحقني هؤلاء الـ (مدّعي) الثقافة كما وصفتهم ، عالم مليئة بالكبر والغرور والغطرسة ، وإذا ثقبت رؤوسهم ستجدها فارغة من الثقافة والأدب والفن ، خرجت من هذا المبنى العجوز وأقسمت أن لا أعود أبدا ، وكأنها إشارة أن هذا ليس الطريق الصحيح ، وذهبت إلى المصنع.

****

ثلاث سنوات كاملة في المصنع ، آلات المصنع هي من جعلتني أعشق الهندسة، عرفت الأستاذ هشام أخو العمدة ، وتأملت عمر العسكري من بعيد ، و تغيرت حياتي تماما ، بعد الهروب المستمر و الانعزال والانطوائية في فترة الإعدادي إلى المواجهة والاختلاط بالناس والعمال في فترة الثانوية ، في البداية كنت عامل نظافة ، أنظف المصنع والماكينات ، الكل عرف أسامة شاهين ، وجدوني خفيف الظل والحركة ، اسمع الكلام وأنفذه ، وضعوني في خانة مميزة نظرا للتفوق العلمي في التحصيل الدراسي ، اعمل بالصيف وانقطع عنه للدراسة ، أصبحت أطول قليلا ، شارب نحيف ظهر على وجهي، لحية خفيفة أطلقتها بدون قصد أعطتني وسامة جديدة لفتت نظر صاحبة العيون الخضر التي تسكن في الطابق الأرضي في البيت القريب من بيتنا.

مروة..فتاة جميلة.. ناعمة البشرة.. بيضاء اللون.. إذا انسدل شعرها الأسود الفاحم على جانبيه يصير وجهها كالقمر ، تطل علينا من عيونها الخضراء إذا وقفت أمام شباك غرفتها ، كان قلبي يتحسر على ما أراه ولا أستطيع أن أفعل شيئا ،

مجموعة من المراهقين يقفون على الناصية في قلوبهم شغف ومتعة، كلهم يتوقون إلى نظرة أو همسة من تلك الشفاه المحرمة عليهم جميعا، ما يشعروا به ليس حبًا، إنما هو عبادة، لا يعنيهم أن تعرف تلك الفتاة ما في القلوب وليس هناك محاولة للبوح بذلك والأغرب هو وجود متعة حقيقية في هذا الحب، عبادة يحسدك عليه الكافرون والأشقياء والمحبين والسعداء.

لم أجد وسيلة للتعبير عمّا أشعر به سوى اللجوء إلى شرائط الكاسيت، إلى الأغاني لعلها أجد ما يريح قلبي في كلمات ، ذات يوم مسكت قلم وورقة وتخيلت أن هناك من يعشق مروة وحظه السعيد أنه يسكن أمامها ويراها ولكنه لا يستطيع البوح بما في قلبه ..كتبت يومها :

(هو الذي لم يكد يراها ويملأ عينيه من عينيها حتى أحس أن سهامًا نفذت إلى قلبه وأن قلبه انشق إلى ضلفتين ومن هاتين الضلفتين ظهر بلبل صغير يغرد بأغاني عصره.. كوكتيل من الحب والوله والغرام.. يرى ابتسامة صافية من بعيد..ثم يدخل البلبل ويغلق نافذة القلب وينام ..ولكن القلب يتوهج ويدق ويخفق ويشتعل، وصاحب القلب لا ينام، ولا تعرف عينيه طريق النوم إلا بعد التعب الشديد ويسخر منه الليل ليتركه نائما مع الدعاء له بأن يراها في الأحلام).

تطورت قليلا وقمت بحيلة ونجحت في الحصول على رقم هاتف مروة من خلال أمي ، لكن ليس لدي هاتف لكي أقوم بالاتصال واسمع صوتها، كانت الخطة مبتورة وتحايلت على صديق لي كانوا يمتلكون هذا الجهاز العجيب ، وسهرت ليلتها عنده وأحضر الهاتف وقمت بتحريك القرص الدائري ، كلما وضعت إصبعي النحيل في الدائرة المخصصة بالرقم كلما دق قلبي بعنف وجبهتي تعرقت ، حتى سمعت رنين الجرس على الجانب الآخر ،وما إن سمعته حتى أغلقت السماعة وركضت من غرفة صديقي وهربت ، كان بعضهم يمشي في القرية وينظر إليّ والسؤال يكاد يخترق رأسي : هل علموا بالجريمة التي فعلتها منذ لحظات ؟ ، دخلت البيت على عجل ثم هدأت لالتقط أنفاسي ، وعدت لخيالي مرة أخرى وورقة وقلم وكتبت :
(إذا سمع صوتها قادما من بعيد، يصيبه الخرس ويفقد النطق وبسرعة يشتغل الكاسيت وتقول الأغنية مالم يستطع قوله..أما هي تقف حائرة.. لا تعرف من هو هذا المجهول الذي يريد أن يشغل قلبها وتتعلق روحها، هو يُحبها، وهي لا تعرف من أتي هذا الغزو الخارجي ومن هو رائد الفضاء الذي يريد التجول في فلكها ؟ وتبقى الأغنية هي الذكرى الوحيدة في الحالة كلها).

لم أصل لشيء مع مروة طوال فترة الثانوي ، حتى جاء اليوم الصادم لي عندما علمت أنها غادرت القرية.. لماذا رحلت ؟ ، حزن قلبي أشد الحزن ، فقد كانت هي التسلية الوحيدة التي أعطتني أمل في الحياة ، قلبي خفق بشدة وأنا بكل جراءة أطرق باب جيرانها لتخرج سيدة جميلة ارتدت روب فوق قميص نومها على عجل ، لم انتبه للتفاصيل وسألت بغضب : أين مروة ؟ أين ذهبت ؟ ابتسمت هذه السيدة وكأنها علمت أن هناك قصة حب مختفية بين القلب والشفاه وفضحتها العيون ، وقالت ومازالت ابتسامتها على شفتيها : مروة غادرت مع عائلتها إلى بيتهم الجديد في المدينة المجاورة لقريتنا .
نزلت جملتها فوق رأسي كالصاعقة ، بدأت أنزف عرقًا وأنا أستمع لنهاية قصة حب من طرف واحد ، انتهت من كلماتها ثم رفعت حاجبيها الرفيعتين في إعجاب لهذا المراهق الذي ظهر من باطن الأرض ليسأل على حبه الوحيد ، تركتها دون سلام أو كلام لكنني سمعت صوت ضحكات جذابة اخترقت أذني انتهت فور إغلاق الباب.

عدت إلى غرفتي مكسور الخاطر ، دمعت عيناي ولم استوعب ماذا حدث ؟ هل أنا تأخرت بالإعلان عن حبي ؟ هل أحبتني فعلا ؟ هل علمت شعوري تجاهها ؟ هل سأراها قدرًا فيما بعد ؟
كالعادة هربت إلى خيالي وكتبت :
(قام صديقي بفعل أغرب ما يمكن فعله ،
دقات الساعة بعد منتصف الليل تعلن عن شيء غريب سوف يحدث بعد قليل، وقفت عصفورة رقيقة في شرفة منزلها ، خروجها في تلك اللحظة إما أنها تتأمل الليل أو النجوم أو تناجي القمر ولكن تصريف القدر كان له رأيا آخر، كل شيء هادئ من حولها، إلا ذلك الشاب الذي يكبرها بأعوامٍ قليلة وقف في شرفته من الناحية المقابلة، ولأن هدوء الليل كان ساحرا، خفق القلب مع نسماته وكأن الشارع غسلته مياه الأمطار فأضاف جمالا فوق الجمال، سهام الحب تتطاير من هنا وهناك. واتسع كل شيء حوله مثل شاشة السينما، ولم يرى إلا هي، استحضر شجاعته وكلمها بلغة الإشارة، رسم قلوبا بذراعيه تارة وبجسده تارة أخرى، رسم على الهواء مشاعر فياضة، أخبرها أنه مسافر ، توسل لها من بعيد أن تنتظر، دبلة الخطوبة في جيبه و يريد أن تزين بها إصبعها، فهمت هي كل

شيء، لم ير وجهها، ولكنه رأي صورة باهتة حالمة من بعيد، أكد أنها موافقة على كل إشاراته، لم ينتابها الخجل ودلفت إلى صندوقها الآمن بعيدًا عن عيون الناس، تأكد من حقيقة مشاعرها في ليلة واحدة، وعند نهاية الليل ونهاية الضوء ونهاية كل شيء ..تبخرت الإشارات.وتمر السنين والكل رحل.. تعبوا من الرحيل إلى الرحيل).

طويت تلك الصفحة من حياتي بما فيها من
آلام وعاودت البحث عن القراءة مرة أخرى وأغلقت باب قلبي وفتحت أبواب عقلي وحصلت على مجموع مرتفع جدا بالثانوية العامة وحققت حلمي والتحقت بكلية الهندسة، لم أتوقف بالعمل في المصنع ، وقلبي أغلقت عليه أكثر ، فالحب ليس للفقراء ووالدتي تكبر في العمر وتضعف وأصابها الوهن، وحاجتي الدائمة للأموال لاستكمال دراستي هي من جعلتني استمر في العمل بالمصنع ولكن الوضع صار مختلفا فأنا مهندس تحت التدريب وعامل في نفس الوقت ، لم يبق من الحلم إلا أن يتحول إلى حقيقة بعد عدة أشهر من التخرج ، إلا أن كل شيء تدمر بعد تخرجي من الجامعة بخمس سنوات وعندها قابلت عمر العسكري لأول مرة ومعه المحامي عبد الحميد الشرقاوي .

(٣)

(لقد احتل مساحة كبيرة داخل صدري
والمحتلين هما : سوء الظن والشيطان)

ماذا بينك وبين الحياة كي لا تعطيك كما تعطي للآخرين ؟ ، أب غير موجود ، أم حادة الطباع ، وحدة تعودت عليها وإذا وجدت نفسك بين الناس تهرع إلى مخدعك وترتجف فرائصك وكأنهم شياطين أو مجرمي حرب أو كبار البلطجة ، كنت خائفا دائمًا من الكلمات والعيون التي تخرج من هؤلاء الشياطين ، إنهم لا يكترثون بالأسلحة بقدر ما عيونهم تطلق قذائف فتاكة أو لسانهم يقطر سمًا ، نظرات ازدراء أو توعد أو استنكار رغم تفوقك العلمي ، تقليل من شأن أفكارك المطروحة ، أنت تتحول إلى شظايا بعد إصابتك بـ قذائفهم ومن ثم تبقى ساكنا بالشلل العقلي ، سنوات طويلة قضيتها بعد التخرج في حالة عدم اتزان بين الأفكار القديمة والمعتقدات والواقع والأفكار المبتكرة ، عملت في المصنع بعد التخرج بسرعة عجيبة ، اهتمام من رؤساء المصنع ، أنت ابن من أبناء المصنع

، البركة في الشباب ، ترقية وشغلت وظيفة مشرف على أحد الأقسام ، راتبي ازداد منذ بدأت، حاولت أفكر في ابنة الحلال التي تشاركني أحلامي ، ولكن مازلت غير قادرا على فتح بيت ، المظهر الخارجي متألق لضرورة الحياة والمنصب ، لكنك من الداخل مثل ما يحويه بيت قديم وبالي، صدامي مع أمك زاد في الآونة الأخيرة ، صرت أعايرها بفقرها ، وقلة حيلتي وهواني ، صراخي أين أبي ؟ أين عائلتي ؟ ألا يوجد عم أو خال ؟ هل جميعهم أموات ؟ هل أنتِ من هذه القرية أصلا ؟ ترى دموعًا تجري مثل الأنهار على وجنتيها بلا شفقة ولا رحمة ، تعود بذكريات ماضية وتتذكر دموعك على الطفل المشرد وتتهم قلب أمك بالقسوة وها أنت الآن تصبح مثلها ، يبدو أن هناك سر ، سر عميق مدفون في بئر أعمق.

***

(جلس أمامي وقد أشعل لفة التبغ في هدوء ، هيئته تُوحي أنه مجرم سابق أو رجل جاء من عالم آخر ، لا ينتمي إلى أهل القرية ، وغير مألوف للجميع ، رفع فنجان القهوة أمام عينيه ثم نظر إليَّ نظرة ازدراء بعد أن عانقت شفته العليا أنفه، أخذت حصتي من الاستفسار ثم انتظرت الإجابة ، وبعد رشفة من القهوة التي فقدت مذاقها والتي أصبحت باردة.. تثيرك رائحتها وتُغضبك طعمها قال في هدوء يُحسد عليه :

"يجوز السؤال الذي سألته لي قد يكون طبيعيا أن يُسأل ولكن..لأنني لا أطيق سماعه منك..

فهو يبدو لي سؤالاً مستفزًا، بل ولا أجد حرجًا أن أتهمك بالغباء وأنك بلا عقل . فتلك المشاعر هي المسيطرة على الموقف وليس العقل.فأرجوا أن تعذرني..بالرغم من أنني لم أعذرك..لعبة الحياة ليست لها قانونا ثابتًا..لعبة الحياة قضيتها في نقطة هامة.. فالمنطق الذي تعيشون به هو منطق العدل والسلام.. حياة نموذجية.. كلمات استهلاكية تداعب بها الفقراء والمساكين وأصحاب الأحلام الرومانسية والله لم يخلق هذه الأرض على هذه الشاكلة.. الحياة لا تستمر إلا بوجود الظالمين والمنافقين وغيرهم ممن يعتدون على حقوق الناس بغير حق.. هذا هو العالم... المسيخ الأعور ما هو إلا فكرة..فكرة عين ترى الظاهر والأخرى ترى الباطن.. نعم.. القضية في "التوازن " ..الحياة مزيج من الحق و الباطل.. الصالح والطالح..الظلام الحالك و النور الوضاء..إذا أُهلمت إحداها

تسلطت الأخرى ..فيخل بالتوازن.. وتبدأ الحياة التي وُجدت منذ ملايين السنين بالضمور والفناء..السلام على الأرض استثناء والحروب هي الأصل.. أجيال تُبيد أجيال من أجل لا شيء.. هولاكو.. جنكيز خان.. هتلر وغيرهم .وستظل هكذا حتى تحدث فتنة يأجوج ومأجوج وتخضب الأرض بالأحمر القاني ويأتي المطر ويعم السلام سنوات قليلة ويبدأ البث الحقيقي ليوم القيامة)

قمت مفزوعا من فوق سريري وكأن حية لدغتني ، من الواضح أنني نمت بعد أن حدث صراع داخلي بيني وبين نفسي ثم ظهر هذا الرجل في كابوس مزعج وهو يجيب على سؤالي الذي ألح عليّ :ماذا بينك وبين الحياة كي لا تعطيك كما تعطي للآخرين ؟

حاولت جاهدا أن أتذكر هذا الوجه الذي رأيته في الكابوس ، أنا على يقين أنني رأيته من قبل ، الملامح ليست غريبة وإن كان غير مألوفا ، هيئته متغيرة ولكنني أعرفه ، شغلني هذا الرجل ، قمت من فوق سريري محاولا البحث عن الشبشب كي أذهب إلى دورة المياه ، لأسمع صوت بالخارج ، صوت يناجي ربه ، صوت قريب ليس ببعيد ، الصوت كان دافئا ، نسيت أمر دورة المياه وخرجت إلى الشرفة ، بحثت عن صاحب الصوت الذي بدا جليا كقمر السماء

مَوّلاي إنّي ببابكَ قَد بَسطتُ يَدي..
مَن لي ألودُ به إلاك يا سَندي؟
أقُومُ بالليّل والأسّحارُ سَاهيةٌ
أدّعُو وهَمّسُ دعائي.. بالدُموُع نَدى
بنُورِ وَجهِكَ إني عَائذٌ وجلُ..
ومن يعد بك لن يَشّقى إلى الأبدِ..
مَهما لَقيتُ من الدُنيا وعَارِضه..
فَأنّتَ لي شغلٌ عمّا يَرى جَسدي..
تَحّلو مرارةِ عيشٍ في رضاك..
ومَا أُطيقُ سُخطاً على عيشٍ من الرَغَدِ..
مَنْ لي سِواك؟!.. ومَنْ سِواك يَرى قلبي؟

ساد الصمت العميق بعد ما سمعت هذا الابتهال الصوفي والتي كانت صاعقة ألجم فيها لساني، انه قريب الملامح للذي زارني في المنام ، رجلٌ قصير القامة، أشعث الرأس ، نمش على وجنتيه ، يرتدي جلباب ممزق من جانبيه ، يرتدي حذاء اسود متهالك ، جلس على عتبة بيتنا ، من أين أتى ؟ لا أعلم ، كل ما هنالك أن قلبي ارتعد عندما رأيته ، يبدو مسكينا في هيئته ولكن المظاهر خادعة ، تذكرت متى رأيته ، أنه في اليوم الذي ذهبت فيه إلى الأجزخانة في آخر الشارع لابتاع غرض ما أرسلتني أمي إليه ، وعندما وطأت قدماي خارجها إذ بي أجد هذا الكائن يتطلع إليّ ، لمحت كشك من الصفيح على الجانب الآخر من الشارع ، قليل من الذكاء أسعفني أن هذا هو بيته ، غرفة مساحتها مترين في متر ، كلها من الصفيح ، ملامح مخيفه ، وأهم ما يميزه هو العيون الواسعة ، تلك العيون التي تسحبك بداخلها دون استئذان ، وكأن الليل قد أخرج لسانه أخيرا ليُنهى حالة صمت الموتى الذي كان من سماته وأفصح عما في داخله من رعد ومطر في تلك الليلة ، كل حواسي مُركزة في أذني ، أنظر وأتنفس وأفكر بأذني ، دبت القشعريرة في بدني، كنت أرتعد من كل شيء ، تفرسني بعينيه كأنهما مسماران يثقبان رأسي ، تغيرت الأمور للحظات بعد أن هدأ المطر و خف صوت الرعد وتلاشى البرق ، رجوته أن ينتظر وأغلقت باب الشرفة ونزلت إلى حيث جلس هذا الغريب والذي عُرف فيما بعد باسم (المجذوب أو الشيخ محمد).

(٤)

(يبدو أن لابد من تجربة كل شئ حتى تصدقه، فالناس متفاوتون في فهم كل الأشياء، والأمر الوحيد الذي لن يخبرك به الناس رغم شدة مصداقيته هو الموت)

أنا قصة حقيقية ، قصة تعيش في عالم الصمت والظلام ، آن الأوان وحانت اللحظة لتظهر إلى عالم الحركة والنور ، العالم الذي نعيش فيه عالم من العميان ؛ لأنهم لا يبصرون إلا ما بين أيديهم و ما يملكه أيدي الآخرين أو لأن هناك غشاوة على أبصارهم ، والناس عندما يساورها الفضول تتحول أعينهم الى عيونًا مليئة بقسوة مروعة ، توجه أشعتها الدائمة إلى الإنسان قليل الحيلة فتحرقه ، وتثير فيه كل عوامل الإحساس بالنقص والغراب.

أنا أعيش في قرية تكرهني بكل ما تحمل الكلمة من معنى، تلك القرية التي ولدت فيها ، أعمل بجد واجتهاد في المصنع وهذا لم يعجب المدير ، أطلق علينا ساديته الظالمة بكل فخر وغرور ، كان يخبرنا دائما أنه يعلم عنّا كل شيء ! كان يقرأ الناس وهذا هو سر التحكم فيهم ، لم نفهم ما الذي يعنيه وماذا يقصد ؟ غير أننا تأكدنا أنه يمارس شذوذه النفسية علينا ، جاء إلينا الخبر الذي جعلنا نتنفس الصَعداء وهو : يوما ما هذا الشخص كان يعمل في الأمن !
أما كيف ارتقى إلي منصبه هذا..لايهم.. العزبة تتسع لهؤلاء المرضى ، رأيت القبح وعشت لحظات مليئة بالألم والعذاب النفسي الرهيب.. صداقات محطمة.. معاملات ظاهرها الرحمة وباطنها الخبث ، آمال منهارة.. طموحات تكمن في حياة إنسانية بسيطة لا تتطلع إلى الترقي بقدر ما تتطلع إلى الثبات على حياة كريمة مستقرة ، هروب دائم وفظيع من وجه قوى شيطانية رهيبة تطاردني.

صرخت بصوت مبحوح.. صوت مخنوق بلغ الحلقوم ، سألت بكل ضعف : أين الله ؟ ، حُطام مُجمع هي قواي المتبقية اتجهت إلى الخيال والخرافات واللامعقول

، كانت أشبه بهلاوس اليقظة ، ولو أن إنسانًا مَلك القدرة على استلهام المستقبل ومعرفة الغيب وقال لي في بداية حياتي العملية: "أن الناس سيصلون بي إلى الكفر "، كنت ابتسمت في سخرية و ارتجلت عمّا يجيش داخل صدري من إيمان عميق ، لكني عشت المأساة بنفسي وصدقت كل شيء، صدقت أن الكثيرين يؤمنون بالحقيقة والقليل ينطقون بها ، عامة البشر-كما رأيت- ليسوا إلا كقطيع من الماشية هم في حاجة إلى من يرعاهم وليس إلى من يُعلمهم ، ومع ذلك فإن الرعاية شيء من النوادر.

واجهت صراعًا عنيفًا بين عقلي وقلبي ، بين هدايتي وبداية ضلالي ، هناك حاجزا غير مرئيا من صُنع المدير وزبانيته والذين يضمرون لي الكراهية والشر لمجرد أني اتقي الله ، استسلمت لصداع مزمن ، صداع احتل رأسي كله ، الشرايين منفرجة على آخرها.. تضغط على كل الأعصاب المحيطة بها ..بدأت أدخن بشراهة ولكن في الخفاء وإن رآني أحد سوف يُقسم أنني مُدخن منذ سنوات وليس منذ شهور ، جنازير دبابات تسير فوق لحمي وتدق عظامي ، لم أعد أتحمل ما يُحيط بي انفجارات مفاجئة وقرارات ظالمة.. وسألت للمرة المليون : أين الله ؟ ، المعاول تضرب بشدة وعنف قاع جمجمتي ، الصداع مازال يسري في رأسي ويقف على عيني ،ألم هائل اشعر به.. إلى أين المصير ؟

الشيء الوحيد الذي لم افقده وأنا أتتبع خطوات الشيطان هو الصلاة ، كنت أتسائل ما الحكمة من الصلاة والدعاء وأنا كما أنا ؟! ، مستقبلي على شفا حفرة ، ملامح مستقبلي غير معلومة لو قتلت هذا المدير وزُج بي إلى السجن ، السكوت والرضا بالموجود نوعًا من الانهزامية والاستسلام نوعًا من الخنوع ، لست راضيًا لما صرت إليه ، كان لابد من مَخرج ، بالتأكيد هناك باب للخروج من هذا المأزق ولكنني لم أكن أراه.. وهنا تنبهت حواسي وتجمعت أفكاري ولملمت شتات نفسي عندما واجهتها : لقد تحولت وتغيرت وأصبحت فردًا في عالم العميان والدليل أنك سألت مرارًا وتكرارًا : أين الله ؟ أليس هذا هو سؤال الأعمى بعد أن كنت بصيرا! حتى جاء من أقصى القرية رجلٌ يسعى لزيارتي ومعه حل اللغز.

كانت تلك الليلة عندما قابلت الشيخ محمد أو المجذوب كما يطلقوا عليه أهل القرية ، جلست معه بين موجات البرد والصقيع ، قصصت عليه مأساتي ، والصراع الذي يعصرني كل ليلة ، خمس سنوات وأنا أعمل بالمصنع و حالتي تتدهور ولا تتطور، صمت الشيخ محمد وصار كالطبيب النفسي يسمع ويمتص كل آلامي ، ثم تكلم وحكي لي قصة عجيبة :

(كان هناك رجل تخطى السبعين من عمره ،متوسط القامة ، أصلع الرأس ، وابيّض .ما تبقى من شعر رأسه ، ملامحه تحمل تجارب وخبرات السنين ، سافر إلى العراق والأردن والكويت والسعودية سنوات طويلة ، فقد زوجته الأولى وطفليه في حادث غريب ، تعرض لحرق كهربائي نال من جسده كله وبقى شهورًا أسيرًا للأطباء والتمريض والأدوية ، تعرض للسرقة والاغتيال ، ومع ذلك.. عندما تراه.. تجده يضحك ويبتسم ويغني!
اختفى منذ زمن ، وعندما جاء ، تعجبت لزيارته ثم داعبته وقلت له : رجل تخطى السبعين ومازال يضحك ويغني ، من أين لك هذا ؟ ، وألقيت عليه ما أحمله من هموم وأحزان ، أستقبل أحزاني بابتسامة دافئة وأردف قائلا : مسألة وقت.

تعجبت من قلة كلماته والتي تحتاج إلى توضيح وفك الشفرة ، قرأ ما ظهر على ملامحي وابتسم عندما شاهد تقطيبه جبيني وبدت نظراتي حائرة ثم استطرد قائلا :

كل مشكلة ولها حل ، الأهم هو الوقت ، الصبر على الوقت وليس على المشكلة ، لذلك قلت لك مسألة وقت، تجاربي وخبراتي في الحياة أخبرتي بهذه الخلاصة، رأيت الموت وصبرت على الوقت، احترقت وصبرت على الوقت ، تزوجت مرة أخرى وصبرت وعوضني الله بالذكور والإناث ، وكانت مسألة وقت ، ما أنت فيه مسألة وقت .)

لا أعلم إن كنت أهذي أم الشيخ محمد حقيقة وأنا جالس معه ، أين تركته ؟وأين ذهب ؟ وكيف وصلت إلى سريري مرة أخرى واستيقظت ، هل هي كانت رحلة

حقيقية أم أنه حلم طويل أم صراع في عقلي اللاواعي ، لا أعلم إلا شيئا واحدًا ، هو أنني استيقظت وقلبي مطمئن ، هدأت ملامحي واستراحت ، قررت أن أذهب إلى أمي أقبل يديها وأرجلها لكي تسامحني على ما فعلته معها ليلة أمس ، وأشرح لها أن الغضب تملك منّي قهرًا ، بخطوات مرتخية عبرت الصالة في خجل ، طرقت باب غرفتها عدة مرات لكنها لم ترد ، ناديت عليها لم تستجب ، لهذه الدرجة مازالت غاضبة أم أنها خرجت من البيت مبكرا ، كانت عقارب الساعة تشير أن الوقت مازال مبكرا ، فتحت الباب بهدوء ، وجدتها نائمة ، اقتربت منها وهممت أن أقبل جبينها فوجدته باردًا ، لطمت خدها بلطف

- أمي.. استيقظي.. أمي..

لم تستجب ، ماتت أمي وهي غاضبة مني ، كسرت قلبها وانكسرت بداخلي ، لم أدري بحالي إلا بعد نوبة بكاء عارمة سببت لي صداع مزمن فيما بعد.

(٥)

(لا تخشى من أحلامك.. فقد تكون طاقة نور فُتحت بسبب دعاء بظاهر الغيب في ليلة القدر)

بعد منتصف الليل تنام القرية إلا من عقول صاخبة أو قلوب متوهجة توهج العشق، في تلك الليلة أبلغت النجمة المتألقة في السماء بفرار النوم من جفوني ، لا مفر من استعادة الذكريات الأليمة قبل السعيدة ، إنه الإنسان الذي يعشق الموت البطيء بكافة وسائله ، قمت من فوق سريري وسرت حافيا فوق سجاجيد قديمة و خرجت من غرفتي باحثًا عن أمي التي فقدتها منذ عدة أيام ، وجدت طيفها جالسًا أمامي وعيونها العسلية تتطلع إليّ وعلى ملامحها علامات الاندهاش تسأل عن سر يقظتي ؟، داعبتها بسؤالي السمج عن سر تأخر موعدها مع الفراش إلى هذا الوقت ؟ ، ولكن مع حضور ذهنها وذكائه الذي مازال متوقدًا أخبرتني بأن هذا هو وقت صلاة قيام الليل ، تعجبت لهذا التوهان الزمني وهممت بأن أعود أدراجي ولكن قفز في ذهني سؤالاً مباغتاً طالما أرقني لسنوات بعيدة ، التفت فلم أجدها في مكانها ، تحجرت الدموع في عيوني، تحشرج صوتي عندما هممت أن أسأل : لماذا تركتني ؟ ، وجدت صالة البيت مظلمة ، أكملت السير إلى غرفتها وما أن وضعت راحتي على بابها انهارت قواي وجلست بين بركة دموعي التي لم تهدأ ..ونمت.. وزارتني في المنام

(خلف الحاجز الزجاجي لحمام السباحة نظرات غامضة ، نظرات مليئة بالحزن والشجن ، نظرات تنبعث من سيدة في العقد الخامس من عُمرها ، ملامح هادئة حانية ولكن بلا حياة ..كأنها امرأة بلا رجل ...حقل بلا زرع....بلا ذكريات مضيئة ... صحراء جافة... هيكل إنسان تقف خلفها تغرب الشمس ، وفجأة تعود الحياة لهذا الهيكل ، تركض من خلف هذا الحاجز ،تتلاشى كل ملامح الهدوء والسكينة والضعف..وكأنها تشق بقدميها طريقًا للمستقبل.. لحظات عجيبة..ترى مشهدًا استثنائيًا ..طفلاً يرتمي في أحضانها وتقبله وتبكي ، كانت هناك سيدة في العقد الرابع تجلس بجوارها تتأمل المشهد وتتنهد بعمق وهي ترى الطبيعة في فصل الربيع..زهور مُتفتحة ..حشائش خضراء تسر الناظرين..خيوط ذهبية من

شمس الكون..ينتهي هذا المشهد بأغرب شيء ممكن أن تسمعه بحياتك..تقوم هذه السيدة الأربعينية ومعها هذا الطفل بعد أن جففت جسمه ثم ارتدى ملابسه ..وقبل الخروج من المكان ..تُلقى على مسامعها جملة هزت كياني وارتعد لها قلبي وسر غامض ملأ فضولي عندما قال للسيدة المسكينة : وداعًا يا أمي)

أفقت من نومي فزعا ، وجدت نفسي على باب غرفة أمي ، السيدة التي رأيتها في المنام كانت هي ، والطفل الذي رأيته كان أنا ، حاولت القيام من مكاني ، فقد اخترقت الصدمة في عمق جسدي كرمح صلب داخل صدري ودمرت أضلاعه ، ما هذا الذي يحدث لي ؟ ، أخيرا وصلت إلى سريري ونمت.

تتوالى الأيام والليالي وهناك أمر غير مفهوم في تلك الأحلام التي أرى فيها أمي دائما تبكي ، ملامحها لانت عمّا كانت حاضرة معنا ، أحاول أفتش في الماضي وفي أعماقي بلا جدوى ، أيام ثقيلة فوق كاهلي ، طلبت إجازة من المصنع لمدة شهر ووافقوا عليها حرصا على سلامتي النفسية ، بعد أيام دخلت غرفة امي وأشعلت إضاءتها ، كانت كما تركتها قبل رحيلها ، حاولت العبث بأشيائها الخاصة ، لم أجد أي شيء مفيد ، أطلع وأنزل بين الأدراج والدولاب ، لم أعثر على أي أثر ، جلست على سريرها وتخيلت وجودها معي وسألتها : أعلم أن هناك سر ؟ أرجو أن تريحي قلبي وعقلي ، ثم هويت على وسادتها كالبيت المتهدم ، ونمت.

(اقتربت من السيدة الخمسينية التي جلست على الأرض ، ورأيت رجل يقترب منها ويسألها ان
كانت بحاجة إلى شيء ، رفعت رأسها ناحيته ورأيت عيونا غرقت في بحور من العبرات ، لسان ثقيل لا يقوى على الكلام ، ربّت على كتفها بحنان يحاول تهدئة تلك الأمواج المتلاطمة من المشاعر الحزينة ، حتى رست سفينتها بهدوء
وترجلت منها وأخبرته بعد إلحاح مستمر منه ،
بصوت حزين نابع من أعماق الشجن :

تزوجت منذ عشر سنوات..كنت صبية جميلة يشهد لها الناس جميعا بهدوء جمالي ..أنجبت طفلا...هذا الذي رأيته معي منذ لحظات...ولكن زوجي أحب فتاة أخرى وأرهقت نفسيًا من سنوات الخيانة ..حاولت أن أسامحه كثيرا ولكنه كان يتمادى في خيانته..لم أطق صبرا وطلبت الطلاق..طلقني..انكسرت من داخلي..لم أعلم ما الذنب الذي اقترفته لكل هذا العذاب والتنكيل..رأيت القبح في كل ركن من أركان المجتمع...لا تنظر اليّ ..أنا أصغر بكثير..زوجي المحترم..انتزع طفلي من بين أحضاني ولأن لديه نفوذ مع مسئولين كبار ..أُصدرت شهادة بأنّي لا أصلح لرعاية الأطفال...وقبل أن أُوضع في المصحة النفسية آثرت السلامة ، ولأنني فقيرة قررت عدم الخوض في متاهة المحاكم التي بلا آخر..واكتفيت برؤية فلذة كبدي من بعيد..مع أمه الثانية..أنا أعلم أنها ترعاه وتعتني به أفضل منّي ولكن ضعف الأمومة هي من تُلقي بي هنا كل فترة، سألتها الرجل عن زوجها وعن السيدة الأخرى وكيف تثق بها إلى ذلك الحد ، قالت في أسى : لا داعي أن تعرف من هو زوجي السابق ولكن الذي أريدك أن تعرفه أن السيدة زوجته لم تنجب ، لذلك أخذ طفلي من بين أحضاني وهرب).

*****

كانت هناك حكاية قديمة روتها أمي عن جدي الذي هو والدها ، وكانت تقول لي دائما أنت بك الكثير من جدك رحمه الله ، حتى جاءت الليلة صافية وقررت فتح الموضوع معها ، أدركت مقعدي وجلست ووقعت في دائرة من الحيرة متسائلا : من أين أبدأ؟ ولكن صوت أمي الآمر قطع حبل أفكاري وازدادت المساحة للاقتراب أكثر بقولها : تكلم....استجمعت شجاعتي وأخبرتها عن قصة قديمة سمعتها عن (جدي) أنه كان مستبصرًا...وأنه كان يعلم الغيب يخبر الجميع بموعد وفاتهم...وأنه شخصيا كان لديه العلم بيوم وفاته الذي تُوفي فيه ..كيف علم بكل هذا ؟ .كانت أمي تمسك بين أناملها مسبحة وفجأة توقفت حركة أصابعها وسكنت شفاهها عن التسبيح لثواني معدودة خيم فيها الصمت على المكان وبشيء من الغضب أكثرت من الحوقلة وبقيت على هذا الحال لدقائق معدودة..كانت تتسارع فيه نبضات قلبي وتتصارع الأفكار داخل عقلي وبشيء من الندم اجتاحت نفسي حتى صمتت أمي فجأة ومع ابتسامه هادئة اعتدلت ظهرها على مسند مقعدها وبريق نظرات عينيها تتحدث بالنيابة عن لسانها.

" لم يكن جدك يعلم الغيب ..فلا يعلم الغيب إلا الله...ولكنه كان يعلم الناس ..كان يقرأ ما بداخل قلوبهم...الجميع كانوا يسألون عن الموت وموعده ...المحطة الأخيرة من حياتنا بالدنيا...الكل مترقب الوصول ولكنه لم يكن مستعد له...لا يعلم ما سر الأسئلة الموجهة إليه ...لم يكن شيخا ولا عرّافًا..كان مثلهم في كل شيء غير أنه من القلائل الذين يؤدون فروض صلاتهم بالمسجد..حتى جاء اليوم ورأي رجلاً من أهل الحي وداعبه بقوله : سنصلي عليك غدا صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر..الغريب أنه تُوفي بالفعل ، اسودت الدنيا أمام عينيه ويردد انه قتله بدون قصد، أن تخبر احد بموعد موته مثل الحُكم الصادر من المحكمة بالإعدام..حاول العودة لحياته الطبيعية ولكن كان هناك صوت يسمعه يهمس له بجوار أذنه..كأنه سُحر ..يخفض رأسه ويتدلى في استسلام ويُغمض عينيه في خشوع كأنه يرتل قرآنا بداخل جوفه وتكاد تلتصق حواجبه من فرط التركيز..وفجأة..ينتبه..ويقول...فلان موعده بعد غد..او يوم كذا..لا نعلم ماذا يفعل لهذه الظاهرة الغريبة التي ظهرت فجأة ..أصبح يخشى الخروج من البيت مخافة أن يقتل أحدا على حد قوله ولكنه في نفس الوقت كان لابد إبلاغ المتوفى لكي يتوب قبل لقاء الله..أسقط في يده من شدة حيرته لم أكن أعلم ماذا أفعل تجاه هذا الممسوس .فالحياة أصبحت جحيما لا يُطاق ، والدتي ماتت منذ زمن بعيد ، وأنا لم أعد قادرة على تلك الخزعبلات، كان مثلك يُحب أن ينام بمفرده في غرفته كأنها مملكة مستقلة عن باقي البيت ، هو الملك المتربع على عرشها حتى وفاته.

سكتت أمي فجأة لتسمع دقات طبول حرب الفضول داخل قلبي ، امتزج الأدرينالين بالهواء الذي استنشقه ليسري داخل رئتاي ويشارك القلب في الهجوم على المجهول من وراء تلك القصة المسائية العجيبة.

*****

الوحيد الذي سوف يفهمني هو المجذوب ، الشيخ محمد ، الوحيد الذي يتحدث معي ، الوحيد الذي دخل بيتي من بعد وفاة أمي ، الوحيد الذي يجلس على بلاط الأرض بعد أن يزيح السجادة التي تعلوها ، الوحيد الذي أخبرته عن أحلامي وكوابيسي راجيا تفسيره وتأويله ، طلب منّي عصر ذهني عن الماضي، لم أفلح

في شيء، الماضي مثل الظلمات بعضها فوق بعض ، لا تكاد ترى منها شيئا إلا ظلالا ، برق ذهني فجأة ، وأخبرته أن هذا الرجل الذي ظهر لي في المنام يشبه كثيرا شخص أعرفه جيدا ، أو يكاد يكون هو ، انتبه الشيخ محمد لحديثي واتسعت عيناه من الدهشة عندما أخبرته باسمه وطلب مني الذهاب له على الفور.

(٦)

(الحقيقة دائما خطيرة مثل عملية جراحة لابد من فعلها كي حياتك تستمر)

من هو أبي ؟ طالما ألح علىّ هذا السؤال طوال حياتي والوحيد الذي لم أجد له إجابة ، وافق عمر العسكري على لقائه في استراحته، لم أكن أعلم ما الفرق بين البيت والاستراحة، ثم ابلغوني انه بيت خاص بعيدًا عن مشاكل العائلة والعمل ، ضحكة ساخرة صدرت منّي عندما فهمت، هؤلاء القوم يعيشون في استراحات و فلل ، العمدة في قصره وله عزب وأراضي ، وعائلة الفقي لها أسهم في المصنع وثروت عز الدين هبط علينا بثروته وكأنه وجد كنز علاء الدين ، أما نحن الفقراء نسكن تحت أرجلهم ،نحمد ربنا على يومنا الذي يمر بسلام ، هل هؤلاء القوم مثلنا بالفعل ؟ هل ينامون ليلا ويحمدون ربهم على ما آتاهم من نِعم؟، هل يعلقون في مكاتبهم ومنازلهم لوحة طالما وجدتها في ورش الحرفيين (علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي) ، أو الآية
(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) ، هل حياتهم مثل حياتنا كلها حرمان وشقاء ؟ ، تذكرت وأنا في الصف الخامس الابتدائي كنت ألعب الكرة مع أبناء الحارة والمنطقة الحيطة ، وكان ابن أحد الأثرياء يلعب معنا وياله من شأن عظيم أن يتواضع أحدهم وينزل لمستوى الأرض الخالية ويندمج مع الأتربة والهواء الملوث، ولأنه ثري كنّا نلعب بالكرة التي ليس كمثلها شيء، كرة قدم أصلية مثل التي نراها في مباريات الدوري العام ، وليست كرة شراب كما تعودنا ، المضحك أنه عندما يلعب و يُصاب ويقع ، الجميع يلتفون حوله للاطمئنان عليه ، حاولت أن أجرب هذا الإحساس.. إحساس أن يلتف الأولاد من حولك ويسألونك هل أنت بخير ويمدون أيديهم ويساعدونك للقيام من فوق التراب فهذا ليس مقامك ، وبالفعل مثلت أني وقعت وتأوهت والنتيجة لا شيء، لا يوجد أي رد فعل ، لم يأتي إلى أحد ، لم أر أي يد امتدت نحوي ، صغرت أمام نفسي وتحجرت دموعي في عيوني وعلمت الفارق بيني وبينه ، فهمت في سن مبكر الفارق بين الفقر والثراء ، القيمة في المال والعزوة والنفوذ ، عقلي الصغير لم يستوعب كل هذا ، كان اكبر مني ، هجرت الكرة واللعب مع الأولاد واتجهت للقراءة.

كل هذا كنت أفكر فيه وأنا في طريقي لمقابلة السيد عمر ، المشوار طويل سيرا على الأقدام ، الاستراحة في ركن بعيد عن القرية ، لم أذهب إليها من قبل ، وصلت للعنوان ، ووجدت باب حديدي في استقبالي ، وعلى الجانب الأيمن زر

جرس الاستراحة ، ضغطت عليه لأسمع صوت رنين مزعج من الداخل ، دقائق معدودة وطل عليا السيد عمر العسكري بنفسه ، رجل له هيبة ووقار ، يشعرك بالأمان والطمأنينة والرعب والخوف في نفس الوقت ، ابتسم ابتسامة هادئة ومد يده للمصافحة ودعاني للدخول ، قفز قلبي من الفرح عندما علمت أنه يعلم اسمي وسط كل هؤلاء العمال.

دلفت شقة الدور الأرضي وجلست في غرفة أعدت للزائرين ، استأذن وأغلق الباب وتركني وحيدا وكأنني في مكتب الأمن وبعد قليل يأتي المحقق ليأخذ أقوالي، ضحكت ضحكة خفيفة من هذا الخاطر وسرعان ما تأملت بعض الصور والشهادات المعلقة على الحائط ، خفق قلبي بشدة عندما رأيت صورة للسيد عمر وهو أصغر بكثير من عمره الحالي، وكأن الزمن توقف للحظات ، تيبست أطرافي وشل عقلي عن التفكير ، إنه نفس الرجل الذي رأيته في المنام ، وكأنني عبرت بوابة الزمن إلى الماضي ، فغر فاي ، اتسعت عيوني و شراييني وأوردتي ، وصارت الدماء في سباق مع الأدرينالين ، واختفى الأكسجين من الهواء و ظهرت صخب في رأسي كأنها طبول افريقية تدق بشدة على قمة رأسي ، هدأ كل شيء فجأة عندما فتح السيد عمر الباب ومعه فنجان قهوة وكوب ماء رغم أنني لم أطلبها منه إلا انه قد شعر بأن الموضوع الذي أتيت من أجله يحتاج إلى التركيز العميق ، وقف متسمرا عند الباب عندما رأى خيوطا رفيعة من دموعي تنساب على وجنتي و شفتاي ترتعشان وقلت :
هل سيادتكم من كنت تزورنا في بيت أمي وأنا صغير ؟ أرجوك يا سيدي.. من هو أبي ؟

****

ذات مساء حزين خيمت مشاعر حائرة أمام باب أحد البيوت الفارهة ، وقفت ذو الثانية من العمر يلتفت يمينا ويسارا ،أمامه وخلفه ، ما بين صعوده للسيارة والعودة للخلف ، نظر خلفه لعله يحظى بابتسامة وداع أو تحية من القلب ولكنه لم يجد أحد ، لم يجد إلا دموع في استقباله لم يفهم ما الذي يحدث خلف الكواليس ، استسلم وترك نفسه في أحضان كان هو موطنه الأصلي ، جلس الصغير على مقعده وبجواره رجل يفكر في الذي حدث.

منذ ثلاث سنوات من تاريخ هذه الليلة الغريبة الأطوار ، كان هناك رجل لم ينجب بعد ، أشاروا عليه بالزواج مرة أخرى إلا أنه لم يرحب بهذه الفكرة خوفا على سمعته ومنصبه والأهم من هؤلاء من زوجته ، وفي أحد الزيارات ، وجد فتاة تعمل ممرضة بأحد المستشفيات خارج بلدته وحدث ما يُسمي بالحب العابر ، وكان ثمرة هذا الحب جنينا في رحم الممرضة ، لم تُخبر به أحد وخاصة أن الحبيب العابر قد سافر عائدًا إلى قريته غير مبالي ، ويشاء القدر أن تقص حكايتها لصديقه الذي كان شاهدًا على زواجهما العرفي ، عندما علم بحملها هرب منها ظنا منه أنها خائنة ، فهو ليس لديه بذور كي تثمر في أرضه ولا أرض غيره ، مزق ورق الزواج العرفي وكأن شيئا لم يحدث ، تأسف صديقه لحالها وتعهد بمحاولة حل هذه المشكلة ، ولكن القدر كان له تصريف آخر

قابلت تلك السيدة رجل شهم الأخلاق ، عرف بمشكلتها وتزوجها زواجا رسميًا ، وعند ولادة هذا الطفل سجله باسمه ، في حين أن زوجة ذاك الرجل علمت بالقصة فيما بعد وصدم بطلبها من استقبال وتبني هذا الطفل الغريب ، وفعل هذا الرجل فعلته وأخذ الطفل عنوة ومع التحايل والأساليب الملتوية استقرت ثمرة الحب العابر في أحضان حديقة أخرى ، كان وقتها قد توفي الزوج الشهم محسورا على ما حدث ، هبط الصغير في حضن والده ولكنه كان حضنا باردا، وجد الجليد في انتظاره ، وعلى الناحية الأخرى توترت قلب الزوجة ، كانت في حيرة من أمرها أتربي ثمرة خيانة قديمة أم تتعاطف مع من لا حول له ولا قوة ، جاءت الليالي باردة ، في تلك الفترة كانت تحاول أم الطفل استعادته لجأت إلى الله ثم لهذا الصديق الذي عُرف بأنه لا يخشى في الحق لومة لائم ، بعد شهور وأيام جافة ، ارتوت الأم بحضن ابنها وقام هذا الصديق باستئجار شقة صغيرة المساحة وشراء أثاث بسيط وبقيت الأم في القرية بعد أن نقل عملها ، كانت الحكمة من ذلك إبقاء الثمرة تكبر لعل صاحب الحديقة يعترف بها يوما ما.

****

كنت اسمع قصة حياتي وأمطار منهمرة تسقط من سُحب رمادية متراكمة في عيني ، جيوش غاضبة كادت أن تفتك بالعالم أجمع تتحرك داخل صدري ،

تاريخي كله في محطة قطار مهجورة منذ زمن بعيد، أنا من ؟ ابن زنا ؟ ابن حرام ؟ معقول ؟ هل تلف الدنيا برأسي أم أنا الذي أدور في فلك غريب عنّي ، الدنيا تتلاشى من حولي ، صفحات بيضاء ظهرت وكأنني أذهب إلى عالم آخر ، أنفاسي تتقطع ، انقطع التيار الكهربائي داخل عقلي ، لم أشعر بنفسي إلا والسيد عمر يحاول إفاقتي ، رويدا رويدا أفقت من غيبوبتي ، أخبرني أنني قمت فجأة من مكاني وهويت كالبيت الذي هدم من أسفله ثم صار ركامًا ، شعرت ببعض من الهبوط في الدورة الدموية ، أتألم من ركبتي اليمنى ، يبدو أنني ارتكزت عليها أثناء وقوعي ، قام السيد عمر بمحاولة إعادة جلوسي على مقعدي مرة أخرى ولكنني طلبت الرحيل ، ألح على توصيلي بسيارته إلى منزلي ولكنني رفضت إلا أنه أخذني بقوة وحزم بجواره في سيارته وعدت للبيت الذي تأمله في لحظات وكأن عيناه تتذكر الماضي في صمت .

(٧)

(ضربات الزمن فوق رأسك دليل على أن هناك دروسا لم تتعلمها بعد)

آذان الظهر يُعلن عن موعده في هذا اليوم الحار، هذا اليوم لم يكن استثناء ، الشوارع ضيقة كانت مكتظة بعشرات المارَّة المتصببين عرقًا ، كان السوق يغض برباب بيوت يشتري حاجياتهن على عجل ، بينما كان سائقي سيارات الأجرة يطلقون أبواق سيارتهم وهم يجاهدون لإيجاد سبيل عبر الشوارع المختنقة بالسيارات ، دخلت قريتي بعد شهور قصيرة من مغادرتها بعد أن علمت قصتي الحقيقية من عمر العسكري ، أرسل إليّ كثيرًا وتعهد بتسوية الأمور ، لقد علمت من هو أبي ، آخر من يخطر على بال بشر ، أمعقول أن يكون سلطان العمدة هو والدي ؟ ، والدي يعيش معنا كل هذه السنوات وهو قريب منا ولا نعلم ، أعمل في مصنعه منذ صغري ، ولماذا لم تخبرني أمي ؟ ، كنت بحاجة إلى الانسحاب كي استعيد توازني ، الفترة التي قضيتها في صحبة صديق في إحدى المدن المجاورة أكسبتني بعض الهدوء ، تعرفت عليها على المهندس عبد الغني توفيق ، هذا الرجل ذو عقل جبار ، متوقد الذكاء ، له خبرات كبيرة بالحياة ، أزاح الكثير من الجبال الجاثمة فوق صدري برؤيته للمستقبل ، موسوعة ثقافية ومتجدد دائما ، لا يبحث عن التقليد ، ليس موظفا بل مبدعا ، مرت شهور وعمر يبحث عني كما قلت حتى عثر عليّ ، دخلت القرية خائفا أترقب ، كان تعبير ملامحي تقول هذه ليست قرية الماضي التي كنت اعرفها حق اليقين ، وكأني أراها لأول مرة مثل السائحين ، منذ متى تم بناء هذه المباني أمام العمارة في وسط الطريق ؟ مَنْ شوّه جمال الطريق العام ؟ المباني الكئيبة حلّت محل حديقة الماضي ، كنّا أنا وأولاد الجيران نجتاز سور الحديقة ونلهو ونلعب ، لماذا دمروا ذكريات طفولتنا ؟ ،ومتى حدث هذا ؟ وجدت لوحة كئيبة على بابها لم أقرأ غير اسم ثروت عز الدين ، ماذا يريدون منّا هؤلاء العجزة ؟ ، أين الهدوء ؟ ما هذا الصخب الذي يُدوي الأذان ؟ لماذا يتعاركون؟ الأيادي تمتد إلي

وجوه بعضهم البعض في عنف ، لا...هذه قرية أشباح ، ليست قريتي أبدا، سأذهب إلى الصلاة ، سوف أفر إلي ربي وأسأله الاستيقاظ من هذا الكابوس ، ماذا ؟ إنهم يصلون خارج المسجد ؟ هل المسجد ممتلئ إلى هذا الحد ؟ لحظة..يبدو أن هناك صلاة جنازة.

" الله أكبر ..الله أكبر "

تقدمت المسجد بقدمي اليمنى تاركا حذائي بالخارج دون اكتراث ، خطواته بطيئة وكأنني قادم إلى صلاة الجنازة تحت تهديد السلاح ، وقبل أن أجلس وأفكر صليت ركعتي تحية المسجد لعل الله يهديني للخروج من هذا المأزق ، لم أركز كثيرًا ، الشيطان حضر في الحال مع أول تكبيرة ووسوس في أذني ، أنهيت صلاتي ، وتأملت الوجوه من حولي ، كلها مألوفة ومعروفة ، تُرى من الذي مات ؟ شعرت بأن هذا السؤال إجابته سهلة ويجوز أن يجيب عليها أي شخص يجلس بجواري ، قمت من مكاني باحثا عن أقرب شخص حتى وجدت عصام - أحد العاملين بالمصنع - استقبلني بحفاوة وسأل عن سر غيابي ، لم اهتم بالإجابة على قدر اهتمامي بإجابة سؤالي ، وتتوالى المفاجآت وأعرف المتوفي.

هل القدر سيعدل من مساره معي ؟ الحقيقة أن هذا المتوفى قد سبب له الكثير من الشرخ المعنوي داخلي ، وطالتني يد الأذى ، ويوما ما كان السبب في الوقيعة بيني وبين عمر العسكري وهشام مدير المصنع ، لولا حكمة عمر العسكري وهدوءه والأدلة والبراهين ، لكانت علاقتي معه في شقاق ، لولا أن فَرَق البحر بعصاه ونجوت ، لغرقت كما غرق آل فرعون وجنوده ، ومع ذلك لم يهدأ له بال وأرسل لهما السامري ، ولكن الله عز وجل كان له بالمرصاد، وهرب السامري من حياتنا ولكن بعد أن فتن الناس فتونا ، و صارت البيوت ظاهرها كباطنها من العذاب .

"الله أكبر..الله أكبر "

أخرجني من شرودي نداء الإمام لإقامة الصلاة..قمت متثاقلا عندما سمعت (قد قامت الصلاة) ..خشيت أن أكون قد تغيرت وقلبي تغير وصرت من المرائين..الذين إذا قاموا للصلاة قاموا كسالى..فالذي حدث لي في الشهور الأخيرة قد جعلتني أسأل أين الله في كل ما يحدث لي ؟ استعذت بالله من الشيطان الرجيم. .وقفت في الصف الثالث ولمحت على يساري تلك الجثة التي طالما كانت تتحرك في كمائن الشر ..كدت أن أسخر منه ..لولا أنني تذكرت أنني في بيت من بيوت الله ..استعدت توازني قليلا ..وبعد التكبير..لم يتركني الشيطان مرة أخرى.

في يوم ما استدعاني عمر العسكري ، وكان غاضبا مني ، ولم أفهم سر غضبه الذي كاد يحرقني وأنا جالس أمامه ، وسألني سؤالا مباشرا : هل حقا اشتريت أخرجت سر المصنع لعائلة الغول ؟ ، تعجبت من هذا السؤال الغامض ، وكانت الإجابة نافية قاطعة ، وبعد أن هدأنا جميعا و بعد ترتيب الأحداث وتسلسلها ، وجدنا أنها بذرة إشاعة قد أُلقيت في أرض خصبة للإشاعات ونمت وترعرعت وكانت ثمارها رؤوس الشياطين .

(السلام عليكم ورحمة الله)

أنهى الإمام صلاة الظهر ، صحيح أن صلاتي كانت بلا خشوع ، لكنني استغفرت ربي كثيرا لعلها تنجيني من غفلتي ..اضطرب قلبي و امتقع وجهي وأنا أرى الجثة محمولة على الأعناق وهناك من ينظر لي شذرًا ، والتساؤل يخرج من العيون : لماذا لا تتقدم معهم في حمل المتوفى ؟ ، تركتهم لظنونهم غير عابئ بهم ، فإن القلب إذا امتلأ بالكراهية والحقد تجاه أحد فليس بالأمر الهيّن أن يصفو ، فإن هناك عالم ضبابي ما بين الحقائق وبين عالم الخيال وفي كثير من الأحيان قد تكون بين الاثنين مساحة من العتمة يصعب التكهن بمساحتها.

(صلاة الجنازة.. في الركعة الأولى ..)

كان الإمام يشرح كيفية صلاة الجنازة ..شردت وتنهدت تنهيدة خرجت من الأعماق ، فأنا في اختبار صعب و لعين ، لأن بعد التكبيرة الثالثة مطلوب منه أن أدعو للمتوفى ، هل أدعو ؟ هل سأطلب من الله المغفرة والرحمة للإنسان الذي لم يرحمني ابدًا ؟هل أطلب له الثبات عند السؤال وهو لم يدع لي فرصة للثبات على موقفي ؟ هذا من كانت أسئلته مراوغة له طول حياته ؟ هل أطلب له العفو ؟ وهو الذي لم يعفو عن أخطائي البشرية العادية ؟ شردت كثيرا في التساؤلات الغير منطقية ، حتى أنهى الإمام صلاة الجنازة.. ابتسمت في سخرية دون أن تُرسم على شفتاي أي علامة منها ..فقد سافرت بعيدا ولم أدعي.

خرجت سريعا قبل الازدحام ، خرجت ورأيت الحياة مرة أخرى، تقدمت الجنازة وتأملت حال السيارات التي توقفت احتراما لهذه المناسبة المقدسة ، آه لو يعلمون ، تسمّر الباعة والزبائن في أماكنهم ورفعوا إصبع السبابة كما التشهد أثناء الصلاة ، الحال تبدل لدى الجميع إلا أنا ..أنا الوحيد الذي خرجت كما دخلت ، قلبي ملئ بكل سواد الدنيا .

اقتربت الجنازة من المقابر ..ودخل النعش أمامي بعد أن وقفت خارجها والعيون ترقبني ما بين احتقار واندهاش ..بعد دقائق خرج النعش بلا جثة ، خرج الصندوق خفيفا وكأنه استراح مما كان يحمله...لحقت نظراتي بعيدا حتى غاب صندوق الموتى بين صناديق الأحياء..وبعد نصف ساعة بدأ المشيعون في الخروج من المقابر والكل يتبادل نفس النظرات كما دخلوا ..حتى تجرأ أحدهم وأقترب منه وسأله : لماذا لم تحضر دفن مدير المصنع السابق المهندس شريف أبو المكارم؟

لم أجب عليه ، رأيت عمر العسكري يرسل لي بإشارة من يده أن أقترب ، مددت يدي مصافحا وأخبرني أنه يريدني لأمر هام ، وافقت مبدئيا على المقابلة لأنني أيضا أريد العودة إلى المصنع ولكن بخطط جديدة ستغير وجه القرية.

(٨)

(أدركت ما بداخل قلبي متأخرًا ، وبعد أن ابتعدت عن المجتمع الذي أعيش فيه ، كنت أظن أنني حاملاً لواء الحب والتضحية بالنفس والمال تجاه المجتمع ، وعندما وجدت الجفاء المادي وأنهم يريدون الحياة بالمجان ، نزعت نفسي ساخطًا ؛ أعيش في مجتمع آخر لا يفرق كثيرًا عن الذي تركته فهو أيضا بلا مبادئ ولا قيم .. غير أن الأخير يعطي مقابل مادي سبب لي الكثير من الراحة ..فعلمت أنني غارق في المادية وأنني كذبت على نفسي قبل الآخرين ..صدقًا..العيب في نفسي وفي طريقة تفكيري "

لا أحد يعلم لماذا تطور حالي إلا المجذوب وعمر العسكري ، صارت القرية بالنسبة لي مثل بلاد الغربة ، أصبحت مثل الشجرة المنقولة من الغابات إلى الحدائق، ومن الحدائق إلى الصوبات ، وذلك لأنني بلا جذور ؛ فأنا سهل

الاقتلاع من أي مكان لأي مكان ، كل ما أريده هو تربة خصبة صالحة لحياتي القصيرة ، عدت والأسئلة تحوم حول رأس عمر ، وجدني انغمس مع عائلة الفقي والغول وثروت عز الدين لشهور طويلة ، أصبحت أكثر حيوية ونشاطا عن الأول ، صار لي أنياب وأظافر وصوت عالي مع الجميع ، الأغرب أنني ترقيت لمنصب أعلى وسط ذهول الجميع ، بهذا العمر الذي لم يتجاوز الثلاثين ويصبح له شأن وكلمة! ، هل شريف أبو المكارم كان حجر عثرة وعندما مات أزيحت من أمام طريقي ؟ ، اقتربت من لهم همة وعزيمة وتحدثت معهم عن التغيير في المستقبل كنت مليء بالحماس والاشتعال من داخلي كان ذاتيا ، أي قوة هذه التي امتلكها ؟ ، كان يراقبني عمر من بعيد ، القليل من يعرف عمر أنه كان ضابط بالجيش وخرج من الخدمة بناء على طلبه ، لا أحد يعلم الأسباب فهو كتوم إلى أقصى درجة ، له أسراره الخاصة ، وهو في نفس الوقت بئر من الأسرار ، يعلم عنا كل شيء وكأن هناك قوى خفية تعمل لحسابه ، بدأت استعيد الثقة في نفسي عندما وجدت بعض العمال يتكلمون عن التغيير ، التجديد، الشباب هم أكثر حظا في الاستجابة ، الفقراء أكثر تضحية ، أما أصحاب المناصب هم أكثر الناس خوفا على مناصبهم وأموالهم وأولادهم ، رأيت عالم آخر عندما اقترب من الجميع ، عالم حقيقي واقعي غير مزخرف بزينة ، سقطت الأقنعة ، الفقير يحمل قناع الرضا والاستسلام بالحياة وهو من داخله كالحرباء يتحور ويتلون للمصلحة ، الثري يحمل قناع الطهر والنقاء وهو يتمنى دهس الفقراء لأنهم يعطلون مصالحهم ، رأيت ما هو أخطر من كل هذا ، ثروت يتغذى على عُقد النقص عند الجميع ، أحببت عقل ثروت وطريقة انتقامه من الكل بسلاح لا أحد يستسلم أمامه ، وهو سلاح المال ، تزوج من الفتاة التي أحبها يوما من أجل إرضاء وإشباع غروره ، وتزوج بأخرى من أجل النفوذ والسلطة ، لم يستطع الاقتراب من العمدة لأنه شبكة أخطبوطية معقدة ، ثروت ينقصه أمر هام كان عندي وهي رؤية المستقبل من منظور علمي وفكر مشرق وهذا ما استلهمته من عبد الغني توفيق الذي ينقصه أيضا العلاقات والمعارف ، سامي الفقي طموح لأبعد حد وسقف طموحاته أعلى من مستواه العقلي وينقصه الخبرة والقيادة والتخطيط ، العمال هم قطع الشطرنج لكل هؤلاء ولابد من حلقة وصل كبرى تصل سامي بثروت بعبد الغني بالعمال بالغول ، يوسف الغول لم يكن يطمع في أي شئ، هذا الرجل يمتلك معظم أراضي القرية وله آلاف الفدادين تكفيه وأسرته

لأعوام عديدة ، لا ينقصه شيء ولكنه كان مثل كرة القدم تتلقفها الأرجل كل فترة ، شخصيته ضعيفة للغاية وله أذن كبيرة في حجم مكبر الصوت لكن لا يرسل إنما يستقبل ، يستمع بلا ملل لأي أحد ، العائق الذي يمنع خلق الشباك هو عمر وبالقطع العمدة ، كان لابد من خلق ذلك الشباك الصغير، العمال في المصنع يعملون مثل الآلات التي يقفون أمامها ، إنهم مغيبون تماما عن التطور التكنولوجي ، لذلك خلقت حركة سرية أسميتها "مجددون"؛ كي يتكلموا عن طريقه ، لقد تحول المصنع إلى غرفة صغيرة ضيقة معزولة عن العالم ، العامل لم يعد يبتكر لأنه غير مؤهل لذلك وغير مسموح له من الأساس أن يبتكر مثل مديره الذي ارتضى بالوظيفة دون إبداع ، كان لابد من إصابة هؤلاء بالهلع الشديد وهم تحت هذه الغرفة الضيقة الخانقة وجعلهم كوقود استعدادا للانفجار الكبير، الذي قرأ كل هذا هو عمر العسكري ، والذي بدوره استدعاني للقائه في الاستراحة، خفق قلبي عندما شدد على موعد المقابلة وأن يكون ليلا دون معرفة أحد ، الذي سار معي تحت ظلام الليل هو الشيخ محمد ، كنا نسير بلا كلام ، الصمت كان الشخص الثالث معنا ، نظرات الشيخ محمد تتابعني في قلق ، قلق قرأته على الفور، وخاصة أن الذي حدث صباح ذلك اليوم لم يكن سهلا ، محاولة اغتيال العمدة يثير لعاب أي فضولي و بالقطع سوف تشير أصابع الاتهام إلى التظاهرات المحدودة التي حدثت ومن بينها حركة مجددون التي في الواقع ما هي إلا حركة شفهية ، لسان بلا عقل مخطط ولا جسد مادي ، وليس لها أذرع ولا سيقان ، مجرد إثارة القلائل في مجتمع محدود ، ويجب أن أهدأ قليلا ولا أثير المتاعب حتى لا يتم اعتقالي ظلما ، وخاصة أن الهدف هو العمدة قبل المصنع.

كان معي نسخة احتياطية من الباب الرئيسي للاستراحة أعطاها لي عمر للذهاب إليه عند الطوارئ ، صعدت بخطوات مرتبكة خائفة من المجهول الذي ينتظرني بالأعلى ، وجدت ظلام السلالم فازداد الخوف وملئ قلبي ، الرعب يجتاح رأسي وبدأت انزف عرقا من جميع مسام جلدي ، سمعت همهمات من الخارج كانت مصدرها الشيخ محمد

،، بمجرد أن جلس على كرسيه سمع صوت مألوف له تحت شرفة منزله ، إنه المجذوب كما يطلقوا عليه أهل القرية ، قام من مجلسه ونظر له نظرة حادة التي

ارتجف لها المجذوب ثم قال كلمات غير مفهومة ولكنه سمع أخر كلمة "السر " ثم اختفى من أمامه كالبرق ، غاص عمر في كرسيه ثم ..،،

،،انتهى عمر من تناول كوب الشاي ووضعه جانبا ، أرهف السمع قليلا ، فكان هناك خطوات تصعد على درجات السلم في هدوء ، خطوات ألفها جيدا ، مال برأسه ناحية اليمين وثبتت عينيه تجاه مدخل السطح ، مشرئب العنق ، لم يندهش من دخوله للاستراحة ؛ فهو الوحيد الذي يمتلك نسخة من مفاتيحها دون غيره ، لم يكذب المجذوب عندما هتف بكلمة " السر "،،

وجدت نفسي أمام عمر آخر غير الذي أعرفه الذي قام من فوق كرسيه واتجه نحوي في سرعة وغضب وصافح وجهي صفعته التي حملت كل معاني الشر والغل الكامن في أعماقه.

***

قابلت الصفعة بكل هدوء أحسد عليه وكأنني رأيتها أمر هام لفتح حوار بيننا ، عاد عمر وجلس على مقعده وجلست أنا على الأرض ، كانت تلك المرة الاولى منذ شهور أرى صفاء السماء إلا من نجوم تلألأت في بهاء عميق ، الطقس أحاط ببرود مثل بداية اللقاء سرعان ما هدأت الأجواء وسأل عمر بحزم :

أيعجبك الذي فعلته ؟

لم أجب على سؤاله ، خشيت أن أرد على سؤاله وتكون إجابة إضافية للإجابة التي يريدها ، فأنا لا أعلم هل يقصد حادثة اغتيال العمدة أم حركة مجددون أم المظاهرات أم هناك أمر مجهول لم أطلع عليه بعد.

مرت ثواني ثقيلة دون إجابة فقال في عنف : أجب

خرجت الكلمات من بين شفتي ضعيفة :

عن أي شيء أجيب ، ارجوا تحديد السؤال.

غمغم عمر: المظاهرات وحركة مجددون والبيان الورقي الذي يُعد منشورات يُعاقب عليه القانون.

في داخلي حمدت الله على أنه أبعد عني تُهمة محاولة اغتيال العمدة ثم قلت بصوت أعلى قليلا : أي قانون ؟ القانـ..
قاطعني : قانوني أنا ..قانون المصنع.. هل جننت ؟ هل تحاول خلق الفتن بين الناس البسطاء.
قلت :
ولم لا ؟ حقي.
--نعم
- نعم.. حقي.. حق السنوات التي قضيتها بعيدا عن أبي ، عن القصر ، عن أملاكي ، المصنع مصنعي وأنا عملت فيه من تحت الصفر ، رأيت الفقر والحرمان ، فقدت أمي بعد أن أغضبتها ، انكسرت من داخلي بسبب شريف أبو المكارم ، كنت كالفتاة العذراء التي تخشى رفع صوتها وإلا اتهموها بأنها قليلة التربية ، سجنت داخل أفكاري وعقلي ، أغلقت قلبي ولم أجرؤ على قول كلمة أحبك للفتاة التي اختارها قلبي لأنني لا أستطيع، الحب رفاهية ليس لمثلي ، كنت أرى دموع أمي وانكسار ظهرها من أجل توفير المال اللازم لتعليمي ، حصلت على المركز الثالث في دفعتي ولم أعين معيدًا لأن لست ابن أساتذة الجامعة، لم أمسك بيد أبي ولم أتحسس شعر ذراعه لأشعر برجولته ، هل تعلم ما معنى أنك بلا حضن أبوي ، لم أجد عائلة بجواري ، كنت نكرة ، أنت لم تشعر بشقاء ثلاثين عاما كانت هي حياتي بين دموعي ودموع أمي ، أنتم لا تعلمون شيئا عن الفقراء ولا البسطاء ولن تعرفوا ، أنتم ورثة العز والجاه والسلطان و الأوامر العليا ، أنتم مثلنا قطع من الشطرنج ولكن الرقعة مختلفة ، رقعتنا من التراب والطين والوحل والشمس الحارة والليالي الباردة ، أما أنتم فرقعتكم من السيراميك والظلال في غرف مكيفة ، لذلك قررت بعد معرفة الحقيقة هي التلاعب بالجميع ، لا تظن أنها ثورة على الفساد أو الاحتكار او الحرية أو... الخ ، أنا أريد قلب الآية تجاه الظلم الذي وقع عليّ، العمدة لن يعترف بي ، وإن كنت ابن شرعيا له ، فأنا نتيجة خطيئة حدثت وسوف تحدث ، وأمي ماتت ولن يعترف بزواجه منها ، وأنا أسمي غير مطابق لاسمه ، ومع ذلك أريد التعويض ، لن أقول أريد حنان الأب ولا الحديث معه ولا الشعور بالأبوة ، لكنني أريد الإرث ، المصنع والقصر، ورأيت العيون جوعى لهذه المطالب ، رأيتها في الفقي والغول وثروت وجعلتهم أدوات استخدم عُقد نقصهم لصالحي..ولن أهدأ أبدا ، العمال على وشك الانفجار في أي

وقت ، البسطاء سيكونوا ضحايا لكن لا يهم ، ما الذي سأخسره ، لن أشعل النيران في جسدي من أجل إنارة الطريق لضرير، إنما أشعلهم هم وأنا أقود الجميع عن بُعد .

استقر غضب عمر ثم قال : وعبد الغني ؟ لقد تخيلت أنك ستقدم على الإلحاد ؟

ابتسمت في خفوت ثم قلت :
صعب من مثلي أن يُقدم على تلك الفكرة ، لقد اهتزت ثوابتي من الداخل بالفعل وتمردت على القوانين الإلهية ، وعزفت عن دخول المساجد وأصبحت الناس في عيني عبارة عن أكاذيب متحركة ، وهي كذلك بالفعل ، ولكنني كنت غافل عن هذا ، عبد الغني توفيق مهندس يعشق عمله ، هو يحب المجد ، أن يُكتب اسمه بأحرف من نور ، ومصنع (فاكتوري) نموذج مثالي لأفكاره المتطورة وأنا تعرفت عليه عندما غادرت القرية ، من الجائز أن تقول إنه قدر خُطط بحكمة فوقية ، وإلا لتركت لحيتي وقصرت جلبابي واتجهت مشاعري نحو العنف والتخريب وتكفير المجتمع ، ولكن نظرة إلى الشيخ محمد أعاد لي بصيرتي.

عمر : المجذوب ؟ هل يعرف حكايتك ؟

أنا : الوحيد الذي يعرف حكايتي ، لا يغرنك صمته وسكوته ، هو لا يتكلم إلا بالحق ، لقد أقسم على ذلك من زمن بعيد ، هل تعلم أنه يصلي الفروض في وقتها ، ويعرف الناس أكثر مننا جميعا لأنه بينهم طوال الوقت ، انه يسمع ولا يتكلم ليس لأنه عاقل ولكنني أعتقد أنه مزدوج الشخصية، تجده فجأة عاقلا حكيما ويستمع إليك بكل كيانه وفجأة نجده بشخصية أخرى في الشوارع والحارات والأفراح الشعبية ، وأعتقد أن لن يستمع له أحد إذا تفوه بأي كلمة لأنه في نظرهم مجذوب أو درويش ، لذلك ظهرت له شخصية أخرى ولا أحد يعلم ماذا سوف يحدث له مستقبلا ، قد يُجن ويفقد عقله.

عمر : والناس والعمال ؟

أنا : الناس كما هم وسيظلون كما هم , يتطلعون بالأمل مع كل جديد , ثم يهدأ حماسهم بعد عدة تضحيات أم تتحقق القليل من المطالب ثم يستأنفوا حياتهم من جديد.. سيدي الفاضل , لقد توصلت لنظرية وأمنت بها وهي أن هوى النفس أقوى من المنفعة العامة , و المصالح إن لم تكن تصب لخدمتك فلا حاجة لنا بها , وأن التغيير لابد أن يكون عالميا قويا إجباريا حتى نسايره والأدق أن تضعف مناعتنا كي نستقبل التغيير ثم تبتلعنا دوامة الزمن في هدوء .

كان عمر يستمع بكل حواسه ، كل كلمة خرجت من قلبي رأيت لمعانا في عينيه ، كانت السَكِينة قد أحاطت بنا ثم اتفق معي على خطة جديدة لم تخطر على بالي إطلاقا.

(٩)

(الحياة حرب , حربٌ مع نفسك حرب مع ظروفك ، وحرب مع الحمقى الذين خلقوا هذه الظروف)

فرانس كافكا

أمام قبر أمي جلست على المصطبة الحجرية التي تخلو من الراحة ، الساحة الصغيرة التي لا تزيد عن متر في متر تم وضع بلاط من النوع الرخيص ، تعجبت من وجود أصيص من الزرع على يمين المقبرة والأغرب أن هناك من يرويها كما مسح البلاط أيضا ، شكرت هذا المجهول في صمت ، جلست بجانب مقبرة أمي وبكيت كثيرا حتى تورمت عيناي ، لن يتعجب أحد من هذا البكاء ،هذا أمر طبيعي ، أنا الذي تعجبت أن المقابر صار مثل شم النسيم ، سوق تجاري عند مدخله ، سيدات من القرية والقرى المجاورة يجلسون بفواكه مختلفة وزائرين المقابر يشترون ، أما في الداخل رأيت الناس جالسه وهم يضحكون وكأنهم في حدائق الجنة ! ، أفقت من شرودي و توجهت بالحديث ناحية أمي أقص عليها باقي الحكاية .

****

اتفق معي عمر العسكري على استكمال ما بدأته ولكن بخططه هو وليست خططي العشوائية ، أخبرني بأن حادث اغتيال العمدة ألهمه بفعل مثلها ، لكن في المصنع ، كنت اندهش من الذي أسمعه وأحدث نفسي بأن عمر جُن أم ماذا ؟ لم يمهلني لكي أفكر، أوضح خطته أن العمدة سوف يدعوه لزيارة المصنع ومعه مأمور المركز ، وسوف يتفق مع مجموعة من الرجال الثقة يرتدون ملابس المصنع ويثيرون الشغب والمظاهرات فور رؤية العمدة في المصنع ، بالطبع سيخرج الناس من شقوق المصنع ويندمجون معهم ، في نفس الوقت يوجد شخص معه سلاح يقف بعيدا ، سيكون ملثما ،بعد أن تنضم لهم وتحفز الجميع ، سوف يطلق هذا الملثم أعيرة نارية في الهواء ، يسود الهرج والمرج في المكان ، ستظهر أنت في المقدمة وأخبر المأمور بك ويتم القبض عليك ومجموعة آخرين ، سوف أغلق المصنع لعدة أيام واجتمع بالعمدة وسامي الفقي ويوسف الغول وثروت عز الدين ومأمور المركز ، سأغضب أمام الجميع من الذي حدث ومن هذه الفتن التي ظهرت على سطح القرية ، ويقتنع العمدة بالعفو عنك وخاصة أنك ظهرت أمام المأمور بلا سلاح ، وتخرج من الحجز ولكن بعد عدة أيام من الحبس الاحتياطي، كما أخبره صديقه المحامي عبد الحميد الشرقاوي، أن المتهم

يتم التحقيق معه بمعرفة النيابة ثم بعد تحقيق النيابة تأمر بحبسه احتياطيا لمدة 15 يوم علي ذمة التحقيق يصدر له أمر بالحبس ويدخل للسجن لتنفيذ الحبس الاحتياطي ، في هذه الفترة النيابة تستمع للشهود وباقي الأدلة على المتهم فإذا رأت النيابة أنه قام عليه الدليل فتمد له مدة الحبس 15 أخرى ومن الممكن أن تقدمه للمحاكمة محبوسا أمام القاضي وهناك إما البراءة أو الإدانة والتنفيذ هنا يكون تنفيذ عقوبة ويخلع البدلة البيضاء وتستبدل بالزرقاء ، أما إذا لم يقم الدليل ضده فتفر ج النيابة العامة عنه وتحفظ القضية ولكن في الغالب أن السياسيين يقدموا لمحاكمات محبوسين أي يمد له الحبس الاحتياطي ، تنتهي مدته إلى أن يحين موعد المحاكمة أما إذا كان لا علاقة له بالقضية فيفرج عنه وتحفظ القضية،

ومن ثم يتنحى هشام عن الإدارة وتصبح أنت مدير المصنع من جهة ومُساهم في المصنع من جهة أخرى وسيكتب لك العمدة عد من الفدادين وعدة عمارات وبيوت باسمك غير أنه سيكون لك حساب خاص في البنك بقيمة مالية ضخمة .

نعم يا أمي، خرجت من القضية لعدم كفاية الأدلة مع نفوذ العمدة وعلاقات عمر العسكري ،وأوفى عمر بعهده ، ورثت أبي بالقانون وهو على قيد الحياة كما حرمني من أبوته وأنا قريب منه ، سأزف لكِ خبر جيد ، تعرفت على الابنة الصغرى للمهندس عبد الغني ، وقد أخبرته بكل حكايتي بالتفصيل ، لقد جذبتني بشدة ، أول مرة قلبي يخفق بالحب منذ أن أغلقته منذ زمن بعيد ، تقابلنا عدة مرات وأرى إعجابا يطل من عينيها ، ثم أخبرتها بأنني أريد أن أتقدم لزواجها وأنا في انتظار ردها.. سأبدأ حياة جديدة بأسرة جديدة وعالم من صنع أفكاري، هل تعلمي يا أمي أن النهر ليس هادئًا ، عندما هربت من القرية كما هرب موسى من قومه ، ذهبت إلى تلك المدينة يجري من تحتها النهر ،أمام غروب الشمس تطلعت إلى هذا الهدوء الإلهي الصُنع ، تمنيت أن أعيشه ولو لساعات قليلة ، فقد تكون كافية للاستمرار في الحياة المزدحمة بالصخب والضوضاء والمؤامرات العلنية والخفية ، موسيقى هادئة تسري من مذياع الغرفة تُرسلني

لعالم آخر ، عالم الأنهار.. ولمَ لا ؟ أخذت القرار فورًا .. غدًا موعدي مع الهدوء على شاطئ النهر .

في صباح اليوم التالي تهيأت كُليا وترجلت سعيدا بهذا اللقاء ، و لأنني ذاهب إلى رحلة قصيرة جدا، أعددت فطوري بنفسي وحملته داخل حقيبة صغيرة ومعها قارورة ماء وحقيبة أخرى بها مفرش للجلوس ، ها هو المكان الذي تمنيت أن أجلس فيه ، تحت ظلال شجرة عظيمة عُمرها أكبر منّي بكثير فرشت المفرش ووضعت على أطرافه أحجار صغيرة حتى لا يطير بسبب الرياح ، تأملت تلك الشجرة ، فهي بالتأكيد كانت شاهدة على العصر ، وهذا النهر أيضا في أعماقه حكايات وقصص ألقى بها البشر للتخفيف عن كاهلهم ، جلست تحت الظل ثم أخرجت جوالي أستمع إلى موسيقى هادئة حانية جدا لتتناغم مع موسيقى النهر الهادئ لأشعر بعمق الحالة التي أعيشها الآن ، تأملت باقي شاطئ النهر عن يميني ويساري وحزنت لما رأيته من إهمال ، لماذا نهجر هذا المنظر الطبيعي ونتوجه لقضاء ساعات من الإزعاج في الكافيهات المختلفة ، سماء ونهر وشاطئ وأسماك صغيرة الحجم تداعبنا في براءة..ألقيت قطعة خبز صغيرة جدا من فطوري للسمك ..وهنا بدأت القصة والإثارة.

السمك ذو الحجم الصغير والذي لا يتجاوز القليل من السنتيمترات وجد طعامه وتجمع بسرعة كبيرة و بنهم كبير تناول الفتافيت ، أعجبتني اللعبة و قمت بتكرارها ، ألقيت بقطع الخبز في النهر الذي يتحول سريعا إلى فتافيت وتأكله الصغار ، تذكرت في تلك اللحظة الموظفين الصغار عندما تُلقي إليهم الحكومة أو أصحاب المصنع بالفتافيت والتي تُسمى (المِنح) والتي سرعان ما تذوب في جيوبهم لأنها لا تُسمن ولا تُغني من جوع ، أفقت من شرودي ووجدت حجم السمك يكبر قليلا، معقول ؟ هناك شيء غير مفهوم.. وبنظرة فاحصة تيقنت أن السمك الأكبر منه جاء ليتناول حصته هو الآخر ، ابتسمت في سخرية ، يبدو أن الصراع على الفتافيت في عالم السمك متوفر ، ألقيت المزيد من القطع ولكن أكبر قليلا ، تختفي السمك الصغار جدا وتظهر بقوة على السطح الأكبر حجما ، (العلاوة يا ريس) تلك الصيحات الشهيرة و الشعارات التي ملأت عالم الموظفين والتي يختطفوها كالسمك الأكبر حجما وتذوب سريعا ، اللعبة تزداد إثارة

وحماس عندما ألقيت بالمزيد.. حينها.. تذكرت الجملة الشهيرة التي قالها لي مديري شريف أبو المكارم يوما ما :
(السوق مثل التورتة الكبيرة.. والناصح من يلتقط أكبر قطعة فيها)، كم وددت لو أن هذا الرجل يجلس بجواري الآن ويرى نظريته (التورته) وهم يتقاسموها السمك الأكبر حجما بعد تنحي الصغار جانبا ، فهم ضعفاء وقليلي الحيلة ولكنه يتعلم من الكبار.. فالكبار كانوا صغارا يوما ما.. والعِزبة تُورث.

أوقفت اللعبة قليلا.. فلم يبق معي إلا قطعة خبز كبيرة.. الحجم الكبير سيغرق ويتحول إلى قطع صغيرة ومتوسطة الحجم وفتافيت.. على أمل أن الكل سوف يتناول فطوره.. مرّت الدقائق وألقيت بها في النهر وبعدها تذكرت قصة قد قصها عليّ أحد الأصدقاء فقد كان طبيبا ومُحب للاستثمار قال لي ونحن في سيارته الخاصة بعيدًا عن أعين الجميع :
" يوما ما اتفقت مع مجموعة من الأصدقاء لإقامة مشروع كبير وهو مجمع طبي كبير به كافة التخصصات و يعمل به الأطباء الماهرين والممرضات الأكفاء ، وبالفعل تم صرف مبالغ طائلة لإحياء هذا المشروع ، وبعد عدة أشهر وبعد أن لمع اسم المستشفى ، وجدنا مَن يريد شرائه ، تعجبنا جدا ، فنحن ليس في جعبتنا أي نية لبيعه ، حتى علمنا بمحض الصدفة أن (مسئول كبير في الدولة) يريد هذا الصرح الطبي ليتم إضافته إلى مشروعه الطبي الأكبر ، مدينة طبية متكاملة، وكأن المستشفى كانت النواة لإنشاء تلك المدينة! ، وبعد الرفض والامتناع ورفع القضايا.. تم بناء مستشفى أضخم منه وعلى مستوى أعلى من خدماتنا.. ولم نمكث كثيرا وتنازلنا عن حلمنا القائم وتم ضمها للمدينة الطبية كفرع جديد وتخصصات مختلفة أخرى ، وغرقنا في خسائر عظيمة ومن بعدها.. تفرقنا جميعا في كل الدول العربية المجاورة)

تذكرت قصته بعد أن رأيت سمكة أضخم من الموجود تسبح بسرعة أشد قوة نحو قطعة الخبز الكبرى و التهمتها مثل الحوت الذي التقم يونس و غاصت بها في الأعماق غير مبالية بالباقي.

قمت من مكاني وأنا أضحك بصوت عال سمعه بعض المارة وأيقنت أن النهر ليس هادئا كما نظن وأن المظهر الخارجي خادعا للجميع ، وأن هناك صراعا للبقاء في الحياة موجود في الأعماق الغير مرئي .

أحبك أمي
إلى روحك السلام.

تمت بحمد الله
الجمعة
31/05/2019
27/09/1440

شكر خاص

أ.مي محمود حافظ
أ.دينا أحمد
أ.شيرين طلعت
أ.أبو يحيى عبد الحميد
د.أحمد يحيى الشريف
المستشار.صلاح الصواف
أ.منى عز الدين
أ.زهراء الناجي
د.بسمه عبده
أ.عبد الله السطوحي
أ.حسن عبد الهادي